

من لطائف القرآن الكريم

الجزء الاول

أ.د. عائد كريم علوان الحريري

العراق - ٢٠١٢ م

من لطائف القرآن الكريم

الجزء الأول

أ.د. محمد كريم مخلوان الحريزي

العراق / ٢٠١٣م

وَسَمِيعٌ
الَّذِي
الَّذِي
الَّذِي
الَّذِي

المحتويات

- ٣ ١- سؤال قديم حديث
- ١١ ٢- هل التثنية جمع
- ٢١ ٣- زوجه زينب ، أم زوجه بزيب؟
- ٢٣ ٤- أنزل إلى ، وأنزل على
- ٣٧ ٥- لماذا على (سفر) وليس مسافرا
- ٣٩ ٦- (عليه) بضم الهاء
- ٤١ ٧- (أن، أو اللام) بعد فعل الإرادة
- ٥١ ٨- (عن) تُشير إلى عادة محمودة
- ٥٣ ٩- (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)
- ٥٥ ١٠- أخطأ البصريون في (لعل)
- ٥٧ ١١- أخطأ الأخفش
- ٦١ ١٢- أ- (من) ويوسف (ع)
- ٦٢ ب- (من) والسد
- ٦٣ ج- (من) واقتصديات قریش
- ٦٦ ١٣- (فطيقَ مسحاً بالسوق والأعناق)
- ٧١ ١٤- (سيهزم الجمع ويولون الدبر)
- ٧٣ ١٥- سراييل تقيكم الحر وسراييل تقيكم بأسكم)
- ٧٤ ١٦- ریح عاصف، ويوم عاصف، وريح عاصفة
- ٧٩ ١٧- (ثلاثمائة سنين)
- ٨٠ ١٨- (اثنتي عشرة أسباطا)
- ٨٢ ١٩- (هل) في القرآن باقية على حقيقتها
- ٨٥ ٢٠- (مُتُّ، ومِتُّ) بضم الميم وكسرها
- ٨٨ ٢١- (وهديناه النجدين)
- ٩٢ ٢٢- أمين، آمين، وآمين
- ٩٤ ٢٣- (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد)
- ٩٤ ٢٤- (ظلام)
- ٩٦ ٢٥- (فتبسم ضاحكا من قولها)

- ١٠٤- ٢٦- (قال ما منعك ألا تسجد)
- ١٠٨- ٢٧- (من كل فج عميق)
- ١١٠- ٢٨- دلالة التركيب على السرعة
- ١٢٠- ٢٩- ومن الحب ما قتل
- ١٢١- ٣٠- عسى للتحقيق
- ١٣٥- ٣١- السمع مفرد
- ١٣٩- ٣٢- (سيماهم في وجوههم)
- ١٣٤- ٣٣- صناعة الإعلانات
- ١٣٧- ٣٤- حاميم
- ١٤٥- ٣٥- أخطأ الزمخشري
- ١٤٧- ٣٦- العدد في القرآن

المقدمة:

لَطْفَ يَلْطُفُ لُطْفًا: رفق به، وَلَطَفَ اللهُ بَعْدَهُ وَلَهُ؛
وفقه وأوصل إليه ما يُحب وَلَطْفَ لُطْفًا، ولطافة: صَغُرُ
ودق. ضد ضخم وكثف، فهو لطيف يُقال: لَطْفَ عَنْهُ: أي
صَغُرَ عَنْهُ ولطف كلامه رِق فلم يكن فيه جفاء.

واللطفية: جمعها لطائف، مؤنث اللطيف النكتة إذا
كان يحدث لها في الأنفس شيء من الانبساط
(المنجد/٧٢٢ مادة لطف)).

و((لطائف القرآن)) هي الأمور الدقيقة الخفيفة في
التعبير التي يكون لها وقع كبير في النفس وتأثير في الوجدان
والجنان وزيادة في الإيمان، هي درة يحتاج استخراجها إلى
تدبر، وتفكير، وموازنة، ومقارنة، واستحضار النظائر،
وتوفيق من الله تعالى.

وقد جمعت شيئًا مما هداني الله إليه، ومصادري في
ذلك أحاديث الشيوخ، ((الانترنت)، وكتب التفسير واللغة،

والصبر الشديد في متابعة الآيات، والنظر في الاحتمالات المتعددة والمفاضلة بينها، والترجيح المبني على العقل، والمنطق، والمعنى، والسياق.

هذه اللطائف منها تصحيحات في كتيب التفسير واللغة والنحو والبلاغة، ومنها توضيح لإشارات علمية، ومنها شتات متفرقة رُدَّ بعضها إلى بعض، ومنها ما كان موجهاً فدفنته يد الزمن ونفضت الغبار عنه يمينها مطوي فنشرته وبسطته، ومنها ما توصل إليه العلم الحديث.

والله أسأل أن يجعله نورا يسعى بين يدي أمي وأبي، وأن يجعله في ميزان حسناتهما، فإن وفقتُ فهي منة من الله وفضلٌ، وإن كانت الأخرى فلي حسنةُ اجتهدتُ وحلاوةُ البحث في كتاب الله.

مَنْ إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمَنَى

وَإِلَّا فَقَدْ عَشْنَا بِهَا زَمْنَا رَغْدًا

المؤلف

١. سؤال قديم حديث:

السؤال القديم الحديث في قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا

كَأَنَّهُ مَرْوُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الصافات/٦٥ هذه الآية كانت مدعاة إلى أن يؤلف أبو عبيدة كتابه ((مجاز القرآن)) وذكر القصة فقال: ((أرسل إلي الفضال بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ١٨٨هـ، ففتقدت إلى بغداد، واستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت، وهو في مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملاءه، وفي صدره فرش عالية لا يُرتقى إليها إلا على كرسي، وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة، فردّ وضحك واستدعاني حتى جلست إليه على فرشه، ثم سألتني وألطفني وباسطني، وقال أنشدني فطرب وضحك، وزاد نشاطه. ثم دخل رجل في زي الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أتعرّف هذا؟ قال: لا. قال: هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة. أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا، وقال لي: إني

كنت إليك مشتاقا وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ فقلت : هات قال: قال الله عز وجل: ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عُرف مثله، وهذا لم يُعرف، فقلت: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ
وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، وعزمت من ذلك أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه، وما يُحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سمّيته (المجاز) ((معجم الأدباء ١٦٦/٧ - ١٦٧ والجمان في تشبيهات القرآن ص ٣١))، وقال الجاحظ ((ت ٢٥٥هـ)) : ((فزعم أناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة في بلاد اليمن لها منظر كريبه. والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، وقالوا: ما عني إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن

ومردتهم. فقال أهل الطعن والخلاف . كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ولا وَصَفَ لنا صورته في كتاب ناطق أو خبير صادق، ومخرج الكلام يدل على التخويف بالصورة والتفزيح منها، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الرجز من ذلك لذكره، فكيف يكون الشأن كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورته لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق وعلى أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتاين وحملة القرآن من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه، ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما؟. قلنا وإن كنا نحن لم نر شيطانا قط، ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده ففي إجماعهم على ضرب المثل يقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين : أحدهما أن يقولوا: هو أقبح من الشيطان، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا على وجهة التطير له كما نسمي الفرس الكريمة شوهاء، والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء

وجرباء، وأشباه ذلك على جهة التطير له ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه أقبح من كل قبيح ((كتاب الحيوان للجاحظ ٦/٢١١ - ٢١٣)).

وقال الآلوسي : ((منبتها في قعر النار، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، و((طلعها) أنبي حملها، وأصله طلع النخل وهو أول ما يبدو، وقبل أن تخرج شماريخه أبيض غض مستطيل كاللوز سمي به حمل هذه الشجرة إما لأنه يشابهه في الشكل أو الطلوع ((سمانه رؤوس الشياطين)) أي في تناهي الكراهة وقبح المنظر، والعرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان فيقولون كأنه وجه شيطان أو رأس شيطان، وإنا لم يروه لما أنه مستقبح جدا في طباعهم لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيرتسم في خيالهم بأقبح صورة، ومن ذلك قول امرئ القيس:

أيقنتني والمشرقي مضاجعي ومستونة زرق كأنياب أغوال
فشبهه بأنياب الأغوال، وهي نوع من الشياطين ولم يرها لما ارتسم في خياله، وعلى عكس هذا تشبيههم

الصورة الحسنة بالملك، وذلك أنهم اعتقدوا فيه أنه خير
محض لا شرفيه، فارتسم في خيالهم بأحسن صورة وعليه قوله
تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ

كَرِيمٌ﴾ يوسف/٣١. وبهذا يُرد على بعض الملاحدة إذ

طعن في هذا التشبيه بأنه تشبيه بما لا يُعرف، وحاصله أنه لا
يُشترط أن يكون معروفا في الخارج بل يكفي كونه مركزا
في الذهن والخيال، وحمل التشبيه في الآية على ما ذكر هو
المروي عن ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما،
وزعم الجبائي أن الشياطين حين يدخلون النار تشوه
صورهم جدا وتستبشع أعضاؤهم فالمراد كأنه رؤوس
الشياطين الذين في النار، وفيه أن التشبيه عليه أيضا غير
معروف في الخارج عند التزول، وقيل رؤوس الشياطين
شجرة معروفة تكون بناحية اليمن منكرة الصورة يُقال لها
الإستن)) ((روح المعاني ١٢/٩٢-٩٣)).

ولتفسير هذه الآية لا بد من الحديث عن النباتات في
المناطق الصحراوية الحارة، لأن البيئة تجعل أوراقها إبرية
رفيعة لتقليل عملية ((التتح)) تبخر الماء، وذلك للاحتفاظ

بالماء الذي تمتصه من أغوار التربة، وثمارها قد تكون مرة، وهذا كله بسبب قلة الماء والظاهرة معروفة في المنطقة المشار إليها.

والشجرة المتحدث عنها في القرآن تنبت في أصل الجحيم منطقة حارة فيكون طلعها رفيعا، وثمارها مرة... أما الشيطان في اللغة فله معنيان : الأول : الكائن غير المرئي المخلوق من مارج من نار، الذي يغوي البشر ويضلهم، والثاني : نوع من الحيّات يكون رفيعا... والغرض من كل تشبيه هو توضيح غير المعروف ((المشبه)) وتقريبه إلى الأذهان بالمشبه به وليس من المعقول أن يشبه الله تعالى ((طلع الشجرة الملعونة غير المعروف بشيء غير معروف أيضا هو الجن فيزيد إلى المشبه غموضا على غموضه، ولهذا يتجه الذهن إلى المعنى الثاني ((الحيّات الرفيعة)) إذ به يستقيم التشبيه، ويتضح، ويحقق الغرض الذي جاء من أجله في التوضيح وتقريب المشبه إلى الأذهان، وعليه يكون التشبيه هو : طلع الشجرة رفيع كرؤوس الحياة الرفيعة وعندئذ يصبح طرفاه ((المشبه والمشبه به)) معروفين وكذلك وجه

الشبه، وليس كما قال اللغويون والبلاغيون : طلعتها
 كرؤوس الجن غير المرئي ؛ ليذهب الذهن في تصويره كل
 مذهب، لأن هذا القول يتنافى والتوضيح وغرض التشبيه في
 اللغة، وعند كل شعوب العالم، وقد يقول معترض، وماذا
 تقول في تشبيه يوسف (ع) بالملك وهو غير مرئي ولا
 معروف في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أُكْبِرْتَهُ وَقَطَعْتَ
 أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا
 مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف / ٣١؟

والجواب: هو أن طرفي التشبيه: المشبه والمشبه به
 معروفان : يوسف مشبه، والملك مشبه به، وفي اللهجات
 العربية ملك بالكسر، وملك بالسكون، وملك بالفتح، وملك
 بالفتح والألف وكلها بمعنى واحد، وعليه يكون المشبه به
 معروفًا فهو إما ((ملك)) رئيس الدولة، وهذا يمنع منه ((ما
 هذا بشرًا)) ولهذا يكون المقصود هو المعنى الثاني: مفرد
 الملائكة، وهو معروف أيضا؛ لأن فكرته وصورته مرسومة

في أذهانهم مأخوذة من صورة الملك الإنسي في تصرفاته،
وحكمته، وهيئته.

وإن لم تقبل بهذا التفسير ففي الأقل أن المشبه طرف
التشبيه الأول معروف هو يوسف على عكس التشبيه الأول
(طلعها كرؤوس الشياطين)) مجهول الطرفين : المشبه
والمشبه به .. وأما قول امرئ القيس فهو صورة حسية
مرئية، لأن المسنونة الزرق هي السهام التي سُقِيَتْ بالسم
فصار لونها أزرق؛ لتؤثر في العدو طعنا، وتسمما، وأما
الغول في اللغة فله معنيان الأول اسم ولا مسمى له قال
الشاعر:

لما رأيتُ بني الزمانِ وما بهم خِلٌّ وفيَّ للصدّاقَةِ أصطفي
أيقنتُ أنّ المستحيلَ ثلاثةُ الغولُ والعنقاءُ والحِلُّ الوفي

المعنى الثاني للغول : هو نوع من الحيّات أيضا، وعليه
يكون المشبه به في قول امرئ القيس هو هذا النوع من
الحيّات، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأول الاسم الذي
لا مسمى له ((الحيوان الخرافي)) والمرجّحة للمعنى الثاني

((الحيّات)) هي قوله : ((ومسنونة زرق)) أي : أنها مسمومة كأنياب الحيّات المسمومة؛ لأن الغول لا أسنان له مسمومة، ولا وجود له أصلا، وما نستنتجه من هذين التشبيهين ((طلعها كروؤس الشياطين)) ثم ((ومسنونة زرق كأنياب أغوال)) هو أن التشبيه في لغة العرب لا يكون إلا بطرفين معروفين، المشبه به يوضح ويبيّن المشبه الملتبس بشيء من الغموض، ويُقرّبه من الأذهان، ولا يكون المشبه به غير معروف بأي حال من الأحوال لأنه يتنافى ومنطق العقل، وطبائع الأعراف.

٢- هل التثنية جمع؟

رأي فريق من اللغويين أن التثنية جمع لأنك فيها تزيد واحدا أو واحدة إلى مثليهما فيصيران اثنين أو اثنتين ثم تتوالى الزيادات بعد ذلك، ودليهم أمران : احدهما أنهما قد يتبادلان المواقع فيأتي جمع ((اقتلوا)) ثم يعدل عنه إلى التثنية ((فأصلحوا بينهما)) أو يؤتى بالثنى ثم يعدل إلى الجمع أو يُخبر به عنه كقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا

فِي مَرِيضٍ ﴿ الْحج / ١٩ والدليل الآخر: هو أن الجمع ورد مضافا إلى المثني في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ وقوله ﴿ فاقطعوا أيديهما ﴾ من إضافة الجمع (قلوب) إلى ضمير التثنية (كما في الآية الأولى وإضافة الجمع (أيدي)) إلى ضمير التثنية ((هما)) في الآية الثانية ؛ لذا سأتناول الآيات التي اختلفوا فيها لأنها من لطائف القرآن.

١- قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

الحجرات ٩ - ١٠ .

الطائفة مجموعة من الناس لديهم فكرة يطوقون حولها، والذي يُسأل عنه هو إهما طائفتان، فلماذا واو الجماعة في (اقتلوا) ولماذا عاد إلى المثني في (بينهما) وفي (أخويكم)؟ وجوابه هو أن الفعل في (اقتلوا) وبضمير الجمع، وليس تقاتلتا، أو ((اقتلتا))؛ لأسباب معنوية، وصوتية، فقيل: ((اقتلوا)) إشارة إلى كثرة القتال بينهما، والاستعداد له، ومحاولة الغلبة فيه، وهذا هو شأن الأوس والخزرج الذين نزلت الآية فيهم، وأسند الفعل إلى واو الجماعة؛ لأن كل طائفة فيها أفراد متعددون، وفي القتال يشتركون كلهم فيه، فسجى ضمير الجمع تعبير عن ذلك، هذا من ناحية المعنى، أما من ناحية الصوت فلئلا تتوالى الأمثال أي لئلا يتوالى مثني مضاف إلى ضمير التثنية، وتتوالى التاءات في ((اقتلتا)) كقراءة إبراهيم بن أبي عبلة، وقال: ((فأصلحوا بين أخويكم)) وليس بين إخوانكم؛ لأن المقصود أصلحوا بين رئيس الطائفتين، فإن تصالحا، فإن أفراد الطائفتين يتصالحون كلهم، وهذا ما كان، وما نراه في الوقت الحاضر، فإذا اختلف رئيسا دولتين اختلف

الشعبان، وشدت إجراءات السفر، والتأشيرات، وكتبت الصحف بما لا يليق، وتحدثت الإذاعات بالشر، وإن تصالحا زالت تلك المظاهر، وكأن شيئا لم يكن . قال الرازي :
(قال — اقتلوا — ولم يقل — اقتتلا — وقال — فأصلحوا بينهما — ولم يقل — بينهم — ذلك؛ لأن عند الاقتتال تكون الفئة قائمة، وكل واحد برأسه يكون فاعلا فعلا، فقال — اقتتلوا — وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة، وإلا لم يكن يتحقق الصلح فقال — بينهما — لكون الطائفتين حينئذ كفتين)) التفسير الكبير ٢٨/١١٠، وقال الآلوسي: ((— اقتتلوا — أي تقاتلوا، وكان الظاهر اقتتلنا بضمير التثنية كما في قوله تعالى — فأصلحوا بينهما — أي بالنصح وإزالة الشبهة إن كانت والدعاء إلى حكم الله عز وجل، والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة فقد روعي في الطائفتين معناهما أولا، ولفظهما ثانيا على عكس المشهور في الاستعمال، والنكته في ذلك ما قيل إنهم أولا في حال القتال مختلطون، فلذا جمع أولا ضميرهم وفي حال الصلح متميزون متفرقون

فلذا ثنى الضمير، وقرأ ابن أبي عبله ((أقتلتا)) بضمير
التثنية والتأنيث كما هو الظاهر، وقرأ زيد بن علي، وعبيد
بن عمير ((اقتتلا، بالتثنية والتذكير باعتبار أن الطائفتين
فريقان (روح المعاني ١٣ / ٣٠١ وقال في قوله تعالى :

﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ ، للإيدان بأن الإخوة الدينية

موجبة للإصلاح، ووضع الظاهر موضع الضمير مضافا
للمأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض
عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح

فيما فوق ذلك بطريق الأولوية؛ لتضاعف الفتنة والفساد

فيه، وقيل، المراد بالأخوين الأوس والخزرج اللتان نزلت

فيهما الآية، سمي كلا منهما أخا لاجتماعهم في الجسد

الأعلى، وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن بخلاف

عنه ((إخوانكم)) جمعا على وزن غلمان ((روح المعاني

١٣ / ٣٠٣)).

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى : ﴿هَذَا نِ خَصْمَانِ

اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾ الحج/١٩ قرأها الجمهور

((اختصموا)) وقرأها إبراهيم بن أبي عبلة ((اختصما))
 مراعاة للفظ، وخصمان تشية خصم، وقرأها الكسائي
 بكسر الخاء، وقيل هم المؤمنون واليهود، وعن أبي ذر
 (رضي الله عنه)) أنه كان يقسم أن هذه الآية نزلت في
 الثلاثة ((والثلاثة الذين بارزوا يوم بدر، وهم حمزة بن عبد
 المطلب وعبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، وعتبة
 وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة... وخصمان مثنى، وأعيد
 عليه ضمير الجمع ((اختصموا))؛ لأن كل خصم يضم
 جمعا، فروعى المعنى لذلك، قال الألوسي: ((ولما كان كل
 خصم فريقا يجمع طائفة جاء ((اختصموا)) بصيغة الجمع
 ((روح المعاني ٩/١٢٧ - ١٢٨)).

ب - قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا
 أَيْدِيَهُمَا﴾ المائدة/٣٨ فيهما قراءتان: النصب والرفع، وقرأ
 عبد الله بن مسعود: ((والسارقون والسارقات فاقطعوا
 أيماهم)) وقرأ أبي بن كعب ((والسُّرِّق والسُّرِّقة)) (البحر
 المحيط ٣/٦٥٨ بيروت ٢٠٠٠م) وقدم السارق على
 السارقة؛ لأن السرقة في الذكور أكثر، فهم الذي يخرجون

من البيت كثيرا، يرون المغريات، والنفس أمارة بالسوء،
على عكس آية (الزنا) لأن المرأة لو لم ترسل إشارات لما
حدث ذلك، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ النور/٢.

والمراد باليد فيه آراء ذكرها الرازي بقوله: ((إن اليد اسم
يتناول الأصابع فقط، ألا ترى أنه لو حلف لا يمس فلانا
فمسه بأصابعه فإنه يحنث في يمينه، فاليد اسم يقع على
الأصابع وحدها، ويقع على الأصابع مع الكف، ويقع على
الأصابع والكف والساعدين إلى المرفقين، ويقع على كل
ذلك إلى المنكبين (التفسير الكبير ١١/١٧٧).

ولما كان لفظ اليد محتملا لكل هذه الأقسام فقد
اختلف الفقهاء فيما يقطع على ما يأتي:

١- ذهب الجمهور إلى أن المقطع هو الرسغ، وروي أن
الرسول (عليه السلام) قطع منه .

٢- ذهب الإمامية إلى أن المقطع من أصول الأصابع،
ويترك الإبهام والكف ودليلهم قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴿ البقرة/٧٩. إذ لا شك
أنهم إنما يكتبونه بالأصابع وقد أحسنوا في ذلك، لأن الرسغ
قد يستعان به لأمر شتى، ولأن الإبهام دليل وهوية كما
أثبت العلم الحديث.

٣- ذهب جماعة إلى أن المقطع هو المرفق.

٤- ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المنكب .

٥- قال الطيبي لكل سارق يدان فيجوز الجمع، وأن تقطع
الأيدي كلها من حيث ظاهر اللغة ((روح المعاني
٣/٣٠٣)).

٦- ذهب جماعة إلى أن اليد لا تقطع، وإنما تجرح لتترك
فيها علامة سمة يعرف السارق منه ؛ استنادا إلى الآية

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَاهُ وَقَطَعْنَا أَيْدِيَهُنَّ ﴾ يوسف/٣١.

ولكن لماذا جاء ((أيديهما) بالجمع، ولم يقل
((يديهما)) فذهب الطيبي كما رأينا إلى أن لكل واحد
منهما يدين، فيجوز الجمع وقطعها كلها، ولكن الراجح أن
((السارق والسارقة)) اسما جنس، واسم الجنس أكثر من
الجمع ((والمعنى كل من سرق رجلا كان أو امرأة)جمع

البيان و/ الطبرسي ٣ / ٣٣٠)) لذلك جمعت الأيدي،
وللدلالة على الكثرة، وأضيف إلى المثني انسجاماً مع التثنية
اللفظية العددية ((السارق والسارقة)) ؛ وتخلصاً من توالي
الأمثال في تثنية اليد والضمير، لو قال ((يديهما)) إضافة
إلى ما في الجمع من تخويف بقطع اليدين كليهما كما هو
ظاهر اللفظ، والعرب تميل إلى هذا حتى في التوكيد، فالأكثر
عندهم ((جاء الولدان أنفسهما لا (نفساهما)) ؛ طلباً
للخفة، ولما في الجمع من تعظيم ... ويمكن أن يقال إن اليد
من معانيهما الأصابع كما ذكر الرازي، والإمامية يقطعون
أربعة أصابع، والأربعة جَمَعَ ؛ لذلك جَمَعَ فقال ((أيديهما
)) ... وعلى قراءة عبد الله بن مسعود فلا إشكال في
المسألة إذ يتقابل جمع مع آخر.

ت - قال تعالى : ﴿ **إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ**

قُلُوبُكُمْ﴾ التحريم/٤. المشكل في هذه الآية أن

المخاطبتين اثنتان هما : حفصة وعائشة وقلوبكما جمع ()
فقال أبو حيان لأن التثنية جمع في المعنى ((البحر المحيط
٤٠٩/٨ ، وقال الطبرسي: لثلا يجمع بين تثنيتين)) مجمع

البيان ٣١٣/٥))، وقال العيني بناء على أن أقل الجمع اثنان،
((عمدة القارئ ١١٠/٢٣)) وقال الألوسي : ((والجمع
في ((قولكما)) دون التثنية ؛ لكراهة اجتماع تثنيتين مع
ظهور المراد، وهو في مثل ذلك أكثر استعمالاً من التثنية
والإفراد ((روح المعاني ٣٤٧/١٤)) وقد علل الدكتور
صلاح عبد الفتاح ذلك بـ ((إن المسلم عندما يعمل
الذنب والخطأ والمعصية يتأثر قلبه بذلك فيميل عن وضعه
الإيماني، ويترل عن درجته الإيمانية، ويقل مستواه الإيماني،
وهذا هو المراد بالصغو. وبما أن الصغو يتضمن معنى
الانحراف إلى أسفل؛ لأن الإيمان ارتفاع إلى أعلى، والمعصية
انحدار وانحراف إلى الأسفل؛ لذلك يكون صغو القلب
وميله وانحداره نحو الأسفل متفاوتاً ومتسارعاً. بمعنى أنه
كلما زاد ميلان القلب وانحداره تغير مستواه، وزاد تأثير
الميل والصغو، وكان القلب في عملية صغوه، وانحداره ليس
قلبا واحدا بل عدة قلوب، ولو لاحظ أحد الفروق بين
القلب في مراحل ودرجات صغوه وانحداره لوقف على
ذلك، ولاحظ تأثير الانحدار المتسارع والمعصية فيه ولو

التقطت للقلب عدة صور تمثل كل صورة درجة من درجات انحداره لوجدت فروق.

لهذا المعنى وردت القلوب في الآية مجموعة ((فقد صغت قلوبكما)) وكأن كل واحدة منهما ملكت أكثر من قلب من خلال أثر الصغو والميل للقلب في مراحل صغوه ((لطائف قرآنية ص ١٣٠ - ١٣١)).

وإذا صح هذا التعليل في هذه الآية فلا يصح في غيرها، ويبقى التخفيف ((العلة الصوتية)) للتخلص من توالي الأمثال هي العلة الراجحة المرادة في كل ما جاء على هذه الشاكلة، وكلام العرب شاهد على ذلك.

٣. زوجه زينب، أم زوجه بزيب؟

هما لهجتان عربيتان، ((زوجه بزيب)) لهجة يمنية ولهجة أزد شنوءة، وزوجه زينب (لهجة حجازية، وهي أعم من الأولى وأكثر).

والزوج لفظ يُطلق على الرجل والمرأة عند الحجازيين، تقول : هذا زوج، وهذه زوج.

والقرآن الكريم — في الغالب — يستعمل لفظ (زوج
للزواج الناجح ؛ لأن أحدهما يكمل الآخر، كالمقص لا بد
له من قطعتين ؛ ليكون قاطعا صالحا للاستعمال، قال تعالى:

﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ

زَوْجَهُ ﴾ الأنبياء/ ٩٠. ويستعمل لفظ ((المرأة)) للزواج

الذي ينقصه الانسجام، أو ينغصه العقم، أو الاختلاف في

الدين كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اَنْتَ بِكُوْنِ لِي غُلَامًا

وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ وَاَمْسَ اَتِي عَاقِرًا ﴾ آل عمران/ ٤٠.

ويستعمل (زوج) المقرون بالباء لزواج الآخرة، كقوله

تعالى : ﴿ وَزَوْجَانَهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ الدخان/ ٥٤. وقوله:

﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَىٰ سُرُومٍ مَّصْنُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ

عِينٍ ﴾ الطور/ ٢٠. ويستعمل (زوج) من غير باء لزواج

الدنيا كقوله جلّت قدرته : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا

زَوْجَانَكُمَا ﴾ الأحزاب/ ٣٧. ولم يقل : ((زوجناك بها)).

ولكن لماذا هذا التفريق بين زواج الدنيا، وزواج الآخرة؟ سبب التفريق هو أن زواج الدنيا قسمان : زواج ناجح فيه ثقة واستقرار، وتكاتف، وسعادة وزواج فاشل، شكّ ضرب، طلاق، هجر، خيانة، عراق مستمر، محاكم، وقضاء وقد سمعت أحدهم في العاشرة والنصف ليلا يهدد زوجته، ويتوعدها، ويقسم ويقول: سأقطع (الصوندا) خرطوم المياه عليك.

أما زواج الآخرة فهو زواج مؤانسة، وملاطفة، ومودة وألفة، واحترام، وثقة متبادلة، سعادة، وهناء لا ضرب، ولا طلاق، ولا تهديد بخراطم المياه أو العصي، ولا محاكم أو قضاء شرعي، لا نفقة ولا خبير اجتماعي، لهذا جاءت بعده (الباء) التي تدل على التقارب للود، والعاطفة الحميمة، والعلاقة الوثيقة التي لا تنفصم .

٤- أنزل إلى، وأنزل على:

(إلى) حرف يفيد انتهاء الغاية، أي إيصال شيء إلى حد معلوم، وينتهي الأمر عند ذلك تقول أوصلت إليه كتابا، أي حملته، وذهبت إليه به، وأعطيته إياه، والعملية

تم بهدوء، فلا تعب، ولا غضب، ولا عنت، ولا إرهاق..
(على) حرف يفيد الاستعلاء والفوقية، ويستعمل في سياق
الإلزام، والشدة، والأعمال المتعبة الشاقة، والجو المتوتر
المشحون بالغضب، والشمول والكثرة، والقوة قال ابن
جني: ((وقد يستعمل (على) في الأفعال الشاقة المستثقلة،
تقول قد سرنا عشرا، وبقيت علينا ليلتان وقد حفظت
القرآن، وبقيت علي منه سورتان .. وإنما اطردت (على)
في هذه الأفعال من حيث كانت (على) في الأصل
للاستعلاء والتفرع فلما كانت هذه الأحوال كلفا ومشاق
تخفض الإنسان وتضعه وتعلوه، وتتفرعه حتى يخضع لها،
ويخضع لما يتسدها منها كان ذلك من مواضع (على) ألا
تراهم يقولون : هذا لك وهذا عليك، فتستعمل اللام فيما
تؤثره، و(على) فيما تكره (لسان العرب ٤/ ٨٧٦ مرتبا
ترتبا ألف بائي).

والفعل (نزل) ومشتقاته ورد بعده (مع) والباء، والسلام،
وفي، ومن)) قليلا وورد بعد (إلى) ٤ مرة و(على) ٧٦ مرة،
فعله المفسرون بأن (إلى) لإيصال الشيء إلى غايته

المقصودة، والعاية هنا هي إيصال كلام الله إلى رسوله، وأن
(على) لكونه آتيا من علو، وفاتهم أن (أنزل) تدل على
العلو، إن كانت متلوة بـ (إلى)، أو (على).

وقيل : إن الرسول محمد (ص) له صفتان : نبوة ورسالة
والنبوة أسهل من الرسالة، فالنبي قد يكون لنفسه أو لعائلته
فقط أو لعشيرته أو قومه، أما الرسالة فهي أصعب، وأشق،
وأشد، وأكثر تعباً لأنها للناس كافة، فعندما يُخاطب بصفة
النبوة يُخاطب بـ (أنزل إلى) وإذا خوطب بصفة الرسالة
يؤتى بـ (أنزل على)، إشارة إلى صعوبة الرسالة، وثقل
المهمة وكثرة مشاقها وهو تعليل منطقي لطيف، وفيه شدة
وصعوبة لكنه لا يؤدي إلى نتيجة ملموسة والمتبع لـ
(آيات أنزل إلى، وأنزل على) يستطيع أن يضع خطوطاً
عامة، وضوابط قد تتضمنها:

١- السياقات الهادئة يؤتى فيها بـ (أنزل إلى)
والسياقات الغاضبة المشحونة بالتوتر والعذاب، أو العتب
واللوم، أو الشمول والتغطية يؤتى بـ (أنزل على) .
فالآية (٤٤) من سورة النحل جاء الفعل (انزل) متعدياً

فيها ب (إلى) لأن السياق سياق (رضا ومهاجرين
 وأنصار، ومتوكلين على الله، وما ينالونه في الدنيا والآخرة،
 قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا
 ظَلَمُوا النَّبِيَّ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَاجِرُوا الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
 كَانُوا يَعْلَمُونَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ،
 وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا
 أَهْلَ الدِّكْحِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ
 رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
 نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْحِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ،
 بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الدِّكْحَ لَسِينٍ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
 إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ النحل ٤٢ / - ٤٤ .

وجاء (أنزل) متعديا بـ (على) في الآية (٦٤) من
 سورة النحل نفسها؛ ذلك أن الحديث عن المفترين على الله،
 والنار والشيطان؛ إذ زين أعمالهم، والعذاب الأليم فناسبه (

على) الدالة على الغلظة والشدة، قال تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَكَصِفُ أَلْسِنَتِهِمُ
الْكُذِبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَى لَآ جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهْمُ
مُفْرَطُونَ، قَالَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ
لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿ النحل ٦٢ - ٦٤ .

والآية (٤٧) من سورة الكهف جاءت بـ (أنزل

إلى) لأن جوها، وحي وصلاة، وذكر، وتلطف في مجادلة

أهل الكتب السماوية، وتذكيرهم بالإيمان، وبوحدانية الله

... قال تعالى: ﴿ اذْكُرْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ

الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ

اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ، وَمَا تُجَادِلُوا أَهْلَ

الْكِتَابِ إِلَّا بِاللَّيْلِ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
 وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا
 وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا
 إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
 الْكَافِرُونَ ﴿ العنكبوت / ٤٧ .

والآية (٥١) من السورة نفسها جاء الفعل متعديا بـ
 (على) وأنزل على، ذلك أن السياق فيه شك، ومبطلون،
 وريبة وظالمون، ومطالبة بإنزال آيات قال تعالى: ﴿ وَمَا

كُنْتَ تَنْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُهُ يَمِينِكَ إِذَا
 لَأَرْقَابَ الْمُبْطِلُونَ، بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ،
 وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ

عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَوَلَمْ تَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُنلَى عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿العنكبوت ٤٨ - ٥١﴾

والآيتان السابعة والثامنة من سورة الأنعام جاءتا بـ
(أنزل على) لأن السياق فيه كفار، وإعراض، وكذب،
واستهزاء وإهلاك، واتهام بالسحر، ومطالبة بإنزال ملك
يروونه .. و(على) تناسب هذا الجو المتوتر الغاضب فجيء
بها، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى
أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْزَلْتُمُوسًا، وَهُوَ اللَّهُ
فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ، وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ
رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، أَلَمْ
يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي

الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ
 مِدْرَاجًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ
 فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
 آخَرِينَ، وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ
 بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ،
 وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاتٍ لَقُضِيَ
 الْأَمْرُ لَنَا لَوْلَا يُنظَرُونَ ﴿ الأنعام / ٢ - ٨ .

... وجاءت (عليك) في سورة الإنسان في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ الإنسان / ٢٣ .

لكون الكلام بعدها على الرسول، وتوجيه الخطاب إليه

بالأوامر والنواهي فقال: ﴿ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ

مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْكُوا مَاءً، وَالذَّكْرَ اسْمُ رَبِّكَ بُكْرًا وَأَصِيلًا،

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ إنسان /

٢٤ — ٢٦ فكان المناسب أن يذكر (عليك) (على طريق التفسير البياني ١/١٨٨).

وإن كل كلام قاله الكفار عن الإنزال، وذكره القرآن لنا جاء بـ (أنزل على) ذلك أن السياق فيه إحراج للرسول (ص)، وشدة وغلظة ووعيد، وإهلاك، وتكذيب، واتهام بالجنون، والسحر، والكذب وطلب المستحيل . وإصرار على الكفر وافتراء على الله، ونفي البعث، وطلب السيئة قبل الحسنة، ونقض عهد الله وقطع الأواصر، وإفساد في الأرض وإنكار الإسلام، والأمر بالبقاء على ديانة الآباء، وهذه يناسبها (على) الدالة على الشدة والاستثقال، كما قال ابن جني سابقا، والآيات في ذلك هي :

أ — ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ الأنعام/٨.

ب — ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ

رَبِّهِ ﴾ الأنعام/٣٧.

ت - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ

جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ الفرقان/ ٣٢.

ث - ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ

لَمَجْنُونٌ ﴾ الحجر/ ٦.

ج - ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى مَرْجُلٍ

مِنَ الْقَرِيِّنِ عَظِيمٍ ﴾ الزخرف/ ٣١.

ح - ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ

آيَةٌ... ﴾ يونس/ ٢٠.

خ - ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ

كَنْزٌ ﴾ هود/ ١٢.

د - ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن

رَبِّهِ ﴾ الرعد/ ٧.

ذ- ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ

رَبِّهِ ﴾ الرعد/ ٢٧.

ر — ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ

رَبِّهِ ﴾ العنكبوت/ ٥٠.

ز — ﴿ أَوْ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا... ﴾ ص/ ٨.

٢- السكينة هي الهدوء والاطمئنان وزوال الرعب

وخفقان القلب، وارتعاش اليد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ آيَةَ

مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ النَّبَأُ فِيهِ سَكِينَةً مِنْ

رَبِّكُمْ ﴾ البقرة/ ٢٤٨. وهي مأخوذة من سكن بالمكان

أي أقام به، وسكن الشيء سكوناً هداً وتوقسفاً، ولم

يتحرك، والسكون الهدوء، وعدم الحركة، ومنه جاءت لفظة

(السكون) في النحو عندما لا تحرك الكلمة أو يوقف

عليها...

وآيات السكينة خمسة، واحدة جاءت (أنزل في) قال
 تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ
 لِيَزِدُوا إِيمَانًا ﴾ الفتح/٤. وأربعة جاءت ب — (أنزل
 على) هي: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ
 وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة/٢٦. ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً
 عَلَيْهِمْ ﴾ التوبة/٤٠. ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ
 عَلَيْهِمْ ﴾ الفتح/١٨. ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى
 رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الفتح/٢٦.

ذلك أن (في) تدل على الظرفية، كأنما أصبحت
 قلوبهم ظرفا للسكينة؛ تعبيراً عن شدة الاطمئنان، الثبات،
 والحرف (على) يدل على أن السكينة استعلت قلوبهم،
 وتمكنت منها وشملتها، وغطتها من جميع أقطارها حتى
 صارت ظرفاً لقلوبهم، (فأنزل في) تكون القلوب ظرفاً
 للسكينة و (أنزل على) تكون السكينة ظرفاً، والقلوب في
 داخلها، والتخلل ب — (في) أكبر درجة من تغطيتها ب —

(على) ؛ لأن تخلل الشيء ومما زجته، وكونها جزء منه أشد قوة، وتأثيرا من تغطيته بشيء، والملاحظ أن ثلاث آيات اتصلت فيها الفاء بالفعل أنزل دليل على سرعة الإنزال، وكونه بلا مهلة، ولو وضعنا لهذه الآيات منازل أو مراتب أو درجات من حيث التأثير، مرتبة من الأدنى إلى الأعلى لكانت كالآتي: أ. — ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾

عَلَيْهِمْ ﴿الفتح/ ١٨. ب. — ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾

عَلَيْهِ ﴿التوبة/ ٤٠، ج. — ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى﴾

رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿الفتح/ ٢٦ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا

إِيمَانًا ﴿الفتح/ ٤. ومقياس هذه المنازل أو الدرجات هو

دلالة الحرفين (في، وعلى) وإضافة السكينة إلى الله

والرسول، وإضافة الرسول إلى الضمير العائد على الله

.... وقد تكون (على) واجبة في السياق إذا قصدت الكثرة

أو التغطية كقوله تعالى: ﴿وَزَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا

عَلَيْهِمُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ﴿ الأعراف/١٦٠. وقوله :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

وَرَبَّتْ وَأَنْبَتْ ﴿ الحج/٥. ذلك أن المترل من (المن

والسلوى) كثير كأنه يغطيهم ويأخذون منها ما يشاؤون،

والمطر النازل مع (على) قد يكون غزيراً يغمر الأرض ؛

ليؤثر فيها، ويحيلها إلى طين، ويجعلها صالحة للزراعة.

٣- إن الفعل (نزل) ومشتقاته إن كان مشدداً يقل مجيء

(إلى) بعده، وقد ورد مرتين فقط، ويكثر مجيء على بعده،

وجاء منه (٢٩) مرة مقابل مرتي (إلى) ..؛ لأن (على) كما

لاحظناها من سياق الآيات القرآنية تأتي للشدة والقسوة

والحمل الثقيل، والرسول محمد (ص) حمله ثقيل ومسؤوليته

صعبة وشاقة لأنه رسول للإنسانية كلها، وهذه المسؤولية

تناسبها (على) ولا تناسبها (إلى) قال تعالى: ﴿ وَمَا

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَاثِمَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ سبأ/٢٨.

هـ. لماذا على (سفر) وليس (مسافرا) :

في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ

فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ

أُخْرٍ ﴾ البقرة/ ١٨٥ . لم يتعرض المفسرون لهذه اللفظة وجاء

التعبير القرآني (على سفر) وليس (مسافرا) للأمير الآتية:

أ - أعطت (على) انسيابية للجمله فـ (على سفر) أحلى

وأوقع في النفس من (مسافرا) ، لأن (على سفر) في سياقها

أقرب إلى بحر الرجز من (مسافر) ولو قارنت بينه الجملتين

وتطقتهما لشعرت بفارق الانسيابية بينهما .

ب - حددت (على) زمن المرض والسفر بالحاله المستمر ،

لأن المسافر مازال راكبا على دابة سفره ، ولو قاله : فمن

كان مريضا أو مسافرا (لكان الحديث عن الذين مرضوا أو

سافروا سابقا ، ولا يشمل المرضى والمسافرين ، وقت

مشاهدة الهلال في شهر رمضان . فـ (كان) للمضي

و(على) للحال ، فصار الزمن دالاً على الماضي المستمر ، أي

المرضى الذين ما زالوا مرضى والمسافرون الذين هم ما زالوا متصفين بهذه الصفة.

ج — الفعل (ركب) يأتي بعده الحرف (على) ؛ لأنه يفيد الاستعلاء والركوب هو استعلاء ما يركب . —
(على) تدل على المشقة والإلزام، والكثرة، لذلك جاءت (١١) مرة في سياق الآيات من (١٧٨ — ١٨٥ في سورة البقرة) لأن سياقها هو سياق تكليف فيه مشاق كبيرة وكثيرة : (القصاص في القتلى) وإخراج شيء من تركة الميت للوالدين والأقربين أمر لا يجبه الورثة ولا يرضيهم، ووقوع الإثم على الذين يُبدلون الشريعة في مشقة، والصيام فيه مشقة الجوع والعطش، ومغالبة النفس، وكبح شهواتها، والسفر مشقة، وقالت العرب (السفر قطعة من صقر) فيه قطاع طرق، وفيه ضلالة الطريق، وفيه هلاك من الشمس أو القرّ، وفيه موت من العطش، وفيه خوف من الرؤى المتخيلة، والوحوش الضارية و(المرض) ليس فيه مما سبق شيء سوى الألم والوجع، والقرب من الأهل، والعلاج يخففان من سطوته، وربما يشفى منه، وقلما رأيت مسافرا لم

يمرض، ففي السفر مرض، وزيادة ما ذكرناه من الأمور،
ولا يُردّ هذا السفر بالطائرة، لأن الخوف من ركوبها شديد
والسفر هو السفر، ومشاقه هي هي، لهذا كله جساءت
(على) الدالة على التعب، والعنت معه.

٦- (عليه) بضم الهاء:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهُ

فَسِوَيْتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح/١٠. جمهرة العرب تكسر

الضمير (الهاء) الله (عليه)، إليه، فيه) انسجاما مع الياء، التي

قبله، لأن الياء تكسرة طويلة، والكسرة ياء صغيرة، ويقريش

خاصة تضم هذا الضمير (الهاء) دائما سواء أسبق بياء —

كما مثلنا — أم لم يسبق بها نحو (منه، عنه) (اللهجات /

علي محسن باوٲيه / ٥٠٩ رسالة دكتوراه) واستنادا إلى

اللهجات فقد قرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء كما هو

الشائع وضمها. حفص هنا، ووجه الضم أمور ثلاثة :

— أنها هاء هوية وهي مضمومة فاستصحب ذلك كما في

له وضربه .

ب — حسن الضم في الآية للتوصل به إلى تفخيم لفظ
الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام .

ح — إبقاء ما كان على ما كان عليه ملائم للوفاء بالعهد
 وإبقائه وعدم نقضه (انظر روح المعاني ١٣ / ٢٥٢) .

وسماها الدكتور صلاح عبد الفتاح (هاء) الرفع لأنها
جاءت في جو تشریف وتكريم من الله الكريم للصحابة
السعداء المبايعين، وبما أن الجو جو رفعة، فكأن (الرفع)
أصابت (الهاء) في عليه فكان من غير المناسب أن تبقى
مكسورة، لأن الكسرة لا تناسب هذا الجو، ولذلك تحولت
تلك الكسرة إلى (ضمة) والضممة (مناسبة للرفع ... وإن
الوفاء بالبيعة يكسب المبايع رفعة وسموا وعلوا وإشراقا، في
الدنيا والآخرة، ودليل على صدق المبايع وعلو همته، ورفعة
نفسه وسمو خلقه ؛ ولهذا جاءت الهاء التي تتحدث عن ذلك
مضمومة، فالضمة والرفع جاءت للهاء من الجو الذي
تصفه، والنتيجة التي تقررها، إذ لا تناسب الكسرة هذا الجو
وهذه النتيجة (لطائف قرآنية / ٤٨ — ٤٩).

٧- (أن، أو اللام) بعد فعل الإرادة:

جاءت (أن) بعد فعل الإرادة في القرآن الكريم خمسا

وعشرين مرة نحو: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِقُوا نُورَ اللَّهِ

بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ التوبة/٣٢. وجاءت اللام بعده سبع مرات

نحو: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِقُوا نُورَ اللَّهِ

بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الصف/٨. وتفسير (أن) بعده يسير عند

النحاة والمفسرين هو أنها ناصبة، وما بعدها منصوب بها،

والحدث يقع في المستقبل، واختلفوا في (اللام) ولهم فيها

خمسة مذاهب: أحدها: أن اللام زائدة، والفعل منصوب

بـ (أن) مقدره بعدها، وزيدت لتأكيد معنى الإرادة لما في

لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد كما زيدت اللام في

(لا أباك) لتأكيد معنى الإضافة، ثانيها: إنها غير زائدة

للتعليل، ومفعول (يريدون) محذوف، أي: يريدون الافتراء

لأن يطفقوا، ثالثها: أن الفعل (يريدون) حال محل المصدر

مبتدأ واللام للتعليل والمجرور بها خبر، أي: إرادتهم كائنة

للإطفاء.. ورابعها: إن اللام مصدرية بمعنى (أن) من غير

تقدير، والمصدر مفعول به، ويكثر ذلك بعد فعل الإرادة
والأمر، خامسها: أن (يريدون) مترل مترلة اللازم ؛ لتأويله
بـ (يوقعون) الإرادة، قيل : وفيه مبالغة لجعل كل إرادة
لهم للإطفاء (روح المعاني ١٤ / ٢٨٢ - ٢٨٣).

تلك هي آراؤهم وللوصول إلى رأي مقنع وصائب
لا بد من الرجوع إلى ما تفيده (أن، واللام) في الكلام ثم
النظر إلى السياق وملابساته، وأسباب نزوله، فالفعل
المضارع يدل على الحال والاستقبال، وإذا دخلت عليه
(أن) تخلصه للاستقبال، فتقول : أريد أن أكتب، إذا كانت
الكتابة في المستقبل ولهذا امتنع مجيئها بعد أفعال الشروع ؛
لأن الشروع بالحدث والاستقبال فيه متناقضان، وقل مجيئها
بعد (كاد، وكرب، وأوشك) لمقاربة وقوع الحدث،
وجاءت كاد في القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة ولم ترد
(أن) بعدها، لكنها كثرت بعد أفعال الرجاء (عسى،
وحرى، وإخلولق) لأنها للرجاء وهو مستقبل، و(أن)
تناسبه، وأما اللام فتفيد التوكيد، والتعليل والتخصيص،
والملكية، وحصر زمن المضارع بالحال، فعندما تقول:

جلست لأكتب، فإنك أعددت لوازمها: قلماً، ودفترًا،
وماسحةً ومكتباً، وبدأت بها أو قاربتها جدا لا يفصلك
عنها غير زمن قصير يقاس بالثواني، ومن هنا فإن اللام
تخلص المضارع بالحال، أو تحصره فيه على الأرجح،
وسياقات الآيات التي وردت فيها تشير إلى هذا، وإذا أردنا
أن نقسم الزمن بعد فعل الإرادة فهو على ثلاثة أقسام: أ —
المستقبل بعد (أن) المصدرية، ب — الحال بعد اللام ج —
المطلق إذا جاء اسم صريح بعده كقوله تعالى: ﴿وَمَا

اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ آل عمران/ ١٠٨.

وبهدي من هذه المقدمة، واعتمادا على السياق نتفحص
الآيات التي وردت فيها (أن، أو اللام) في القرآن الكريم،
فالآية (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) نزلت في
جماعة من اليهود والنصارى يؤلهون عزيزا والمسيح،
ويحاولون القضاء على الإسلام وإطفاء نوره، وهم لم
يتخذوا العدة له أو هم أقل تشددا من جماعة آخرين منهم
وصفهم الله بأنه لا يوجد أظلم منهم؛ لأنهم كذبوا عليه
متعمدين، وأنكروا ذكر الرسول محمد (ص) في كتبهم،

وصمموا على كفرهم، ومناهضتهم الإسلام، قولاً وفعلاً،
بالرمح والسيوف، وإعداد الجيوش يوماً بعد آخر؛ لذلك
جاءت اللام بعد فعل الإرادة مؤكدة أفعالهم ومعلقة عداوتهم
الشديدة، وتحريضهم الناس عليها، ومشيرة إلى شرورهم
فيها؛ لأنها تفيد الحصر والتوكيد، وتخصص المضارع بزمن
الحال وتبين هي وما دخلت عليه سبب الإرادة، قال تعالى

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ
يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ،
يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الصف ٧-٨. والدليل على أن

اللام بعد فعل الإرادة تفيد الشروع بالعلم، واتخاذ العدة له،
وتنفيذه، هو أن الله سبحانه أزال الرجس عن أهل بيت النبي
(ع) وطهرهن، وذكر لهن الأمور التي تطهر النفس من
أدرانها فأمرهن بالابتعاد عن الفاحشة، وخوفهن منها،
ودعاهن إلى القنوت لله ورسوله، وإلى الطاعة، والقنوت،
والعمل الصالح، وترك التبرج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة،

وتلاوة القرآن ؛ لذلك جاءت اللام في ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الأحزاب/ ٣٣. معنى هذا أن الله سبحانه بدأ فعلا بالتطهير وإزالة الرجس بتلك الأوامر والوصايا، ولو جاءت (أن) بعده لكان التطهير في المستقبل، وهو عكس الواقع والمراد، قال تعالى ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّسِيئَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا، وَمَن يَقْتُلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمَلٌ صَالِحًا نُفُوتًا أَجْرَهَا مَرْتِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبْسُجْنَ تَبْسُجُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ

اللَّهُ وَمَسْئُولُهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ
 أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً، وَالَّذِينَ مَا يُنَالِي فِي
 يُؤْتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً
 خَيْراً ﴿ الأَحْزَابُ / ٣٠-٣٤ .

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
 قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى
 الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى
 الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى
 أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ
 لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً
 فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ
 لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُزَكِّيَنَّ

نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ المائدة/٦..... في

هذه الآية جاءت ثلاثة أفعال مقرونة باللام بعد فعل الإرادة هي : ليجعل.. ليطهركم .. وليتم ((بعضها يدل على نفي مؤكد، وبعضها يدل على وقوع مؤكد، وأما حدثت فعلا، وأصبحت أمرا ثابتا ملموسا معاينا، وذاقوا نعمته وتفهموا التيسير في أحكامه، فأباح لهم التيمم، وصار شرعا لهم يمارسونه بحدوده وشروطه لئلا يُحرجوا، وطهرهم، وأتم نعمته عليهم، وهذا يؤكد أن ما بعد فعل الإرادة بدأ المسلمون به، ومارسوه فضلا من الله ومنة، إذ طهر أبدانهم وطهر نفوسهم وأخذوا بشريعة الإسلام، يدل على ذلك أن الله سبحانه قال في آية سابقة في السورة نفسها :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ لَيْسَ اللَّهَبِ وَالْمُخْتَلِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُشْرَبَاتُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّعِ الْإِمَّا لَا كَيْفُ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَسِيمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقُ الْيَوْمِ

يَسَّ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ
الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿المائدة/٣﴾

ومن ذلك آيتان في سورة التوبة هما: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

كَافِرُونَ ﴿التوبة/٥٥﴾ هاتان الآيتان في مجموعتين (روح

المعاني ٣٤٣/٥) كلتاها ناهضت الإسلام والمسلمين
مناهضة شديدة، جاءت مواصفاً في السورة نفسها إلا
أن المجموعة الأولى أشد عداوة وكفراً ونفاقاً، فجاء التعبير
عنها مختلفاً بعض الشيء عن التعبير في المجموعة الثانية —
(الفاء) في (فلا) بدلا من (ولا) وإضافة (لا) قبل
أولادهم، واللام في (ليعذبهم) مقابل (أن يعذبهم) في
الثانية، وزيادة (الحياة) قبل كلمة (الدنيا) وخلوها منها في
الثانية وذلك لأن الفاء تفيد السرعة في إيقاع الحدث، وأن

ما بعدها مرتبط بما قبلها ارتباطا شديدا، ومرتبا عليه، ولأن تكرار (لا) قبل أولادهم يفيد التوكيد، وأن عذاب المجموعة الأولى في حياتهم الحالية التي يعيشونها ليل نهار ساعة التحدث عنهم، وأن الله سبحانه شرع في تعذيبهم، أما المجموعة الثانية فتعذيبهم في الدنيا لا في حياتهم اليومية المعاشة؛ لذلك حذفت كلمة (الحياة) وجاءت (أن) الدالة على الاستقبال أي أن عذابهم سيقع في الدنيا، لكنه ليس في وقت التحدث عنهم، و(أن) تناسب السياق التي جاءت فيه، وأن (الواو) لا يشترط أن يقع ما بعدها مصاحبا لما قبلها فجاءت مشيرة إلى أن عذابهم مستقبلا لا فوريا.

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ

أَمَامَهُ﴾ القيامة/٥. في هذه الآية الكريمة الفجور حاصل

ومؤكد؛ لأنه مرتبط بمشاعر إنسانية، وعواطف غريزية، لم

يكن صاحبها مؤمنا فيمنعه إيمانه عنها، فمضى فيها (راكبا

رأسا، ومطيعا أمله، ومسوقا لتوبته) (روح المعاني ١٥/

١٥٣) يدل على ذلك أمران : أحدهما: أنه غير مؤمن ولا

شيء يعيقه أو يردعه أو ينهاه أو حتى يلومه على فعل

المنكر، والثاني : أنه مستبعد حدوث يوم الجزاء أو غير
مصدق به، ويسأل عنه سؤال منكر له قال تعالى :
﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ القيامة/٦. ومن هذه حاله
لا يتوقع منه إلا إحداث الفجور، وإتيان المنكرات، وهي
شاهد على وقوع الحدث وممارسته، والمضي فيه.

وآية النساء هي الآية السابعة التي وردت فيها السلام
بعد فعل الإرادة، ودلت على وقوع الفعل وممارسته ؛ لأن
السياق الذي قبلها قدم لهم فيه شرعا مما يخص النساء فممنع
إرثهن كرها، وحرم عضلهن إلا بالحدود المبينة، والقدر
المعلوم، وأوصاهم بحسن المعاشرة وبين كيفية استبدال زوج
بأخرى، ومنع أخذ ما أعطوه لهن ؛ لأنهم أفضى بعضهم
لبعض، وذكر المحرمات من النساء عليهم، وأوضح الزواج
مما ملكت أيماهم من المؤمنات، ثم تلاه بجد التي تأتي بفاحشة
منهن، وذكر علة ذلك كله بقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ
لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ
عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ النساء/٢٦. فالله سبحانه

وضَّح ويبيِّن شيئاً من قوانين معاملة النساء، وهداهم، وتاب عليهم، ووصفهم في سياق تلك الآيات بأنهم مؤمنون بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا

النِّسَاءَ كَرِهًا...﴾ النساء/١٩. وصفتهم هذه قرينة على أنهم قد أخذوا بما أمرهم، ولم يتعدوه، وتابوا وقبل الله توبتهم، معنى هذا أن الأفعال التي بعد فعل الإرادة قد وقعت فعلا، وستقع لمن يأخذ بها إلى يوم الدين، وبهذه الآية وأخواتها ثبت أن اللام اتسع فيها، فكانت معللة، ومؤكدة ومخصصة في وقت واحد، وأن ما بعد فعل الإرادة وقع أو وقع واستمر، وهيئت له من قبل أسبابه وأدواته.

٨- (عن) تشير إلى عادة محمودة:

(عن) حرف جر، يدل على الجاوزة، والابتعاد قليلا أو كثيرا، ويشير إلى عادة حميدة كانت وما زالت، هي أن تترك مسافة مناسبة — عند القعود أو السير — بينك وبين صاحبك أو بين الرئيس والمرؤوس هيبة واحتراما؛ ليأخذ حرته؛ لئلا يلجأ إلى جلسة القرفصاء، سواء في العشيرة أو

الوظيفة، أو الجماعة، وأيا كانت هذه المجموعة أو الرئيس
والصاحب ولذلك جاءت الأفعال المتعدية إلى اليمين
والشمال في القرآن الكريم مقرونة بـ (عن) لتثبت هذا
التصرف الحسن وترسخه ؛ وإن لم يكن الأسلوب متعلقا
بذات معينة ؛ لأن الأمر إحساس وشعور أصبح مطردا في
كل يمين وشمال، وبناء على تلك العادة التي اكتسب
الأسلوب شيئا منها، وتأثر التركيب فيها ؛ إذ هو نتيجة من
نتائج الممارسات والعادات، والتفكير، ولما رأى المفسرون
ذلك كقوله تعالى: ﴿ إِذِ يَنْتَقِي الْمُلْتَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ

وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ... ﴾ ق/١٧. ذهبوا مذاهب شتى،

فقال بعضهم القاعد عن اليمين أو الشمال كأنه مجاوز
لجلسه، ومنحرف عنه، وقال آخرون ؛ لأن الشيطان يخاف
الملكين على كتفي العبد، وهما يسجلان ما له وما عليه
فيتعد عنهما ويزور، ولكن كيف يفسرون مجيء (عن) في

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ

عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ سبأ/١٥. وفي قوله: ﴿ فَمَالِ

الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ، عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ

عَزِيزِينَ ﴿ المعارج/٣٦ — ٣٧. ليس لذلك تفسير فيما

نحسب إلا العادة التي تسربت إلى تراكيب اللغة، وأثرت فيها، وعكستها، فضلا عن أن الجالس عن اليمين والشمال وجهه مواز لجليسه، ولا يراه إلا إذا التفت يمينا أو شمالا، وأما الواقف أمام صاحبه أو خلفه فعيناه تلاقى وجه صاحبه أو تتابع قفاه، وفي الحالتين كأنه ملاصق له حتى وإن بعدت المسافة بينهما؛ إذ يلاقيه عندما يتابع المشي إليه . هذا الأمور كلها (عادة) وتقابلا، ومتابعة أو توازيا، جعلت (من) مع (بين يديه وخلفه) وجعلت (عن) مع اليمين والشمال.

٩- لله الأمر من قبل ومن بعد:

ضمة في (قبلُ وبعْدُ) واقتراهما بـ (مِنْ) وعدم وجود مضاف إليه، أمور ثلاثة لا بد من توضيحها، وذلك يتطلب الحديث عن ثلاثة أمور: الأول: الخالق قبل المخلوق، والصانع قبل المصنوع، أنت قبل الكرسي الذي

صنعته، وأنت بعده إن أردت تكسيره، أنت قبل كل شيء
صنعته، وأنت بعده ... هكذا هي الأمور، الله تعالى خالق
كل الأشياء وهي لا بد أن تفتنى في يوم من الأيام، وأخبرنا
جلت قدرته بفنائها: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُهُ

رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن ٢٦ - ٢٧، فالله

إذن قبل كل المخلوقات وبعدها، والتقدير (الله من قبل
المخلوقات كلها ومن بعدها .. والزمن يعرف بحركة قسم
من المخلوقات، يعرف بحركة الأجرام السماوية يعرف
بطلوع الشمس وغروبها، وهي فانية كما سبق، فالله إذن
قبل الزمن وبعده.

الأمر الثاني : هو أن الظرفين (قبل وبعد) يُحتمل
اتصالهما بما قبلهما وما بعدهما ويحتمل ابتعادهما عنه قليلا أو
كثيرا، لذلك اقترنا بـ (من) لئلا تبقى قبله أو بعده لا
يكون الله قبلها أو بعدها .

الأمر الثالث : الضمة أثقل الحركات تعطي صوتا
ضخما؛ ولازمت المسند والمسند إليه تعبيرا عن أهميته في
الكلام، لذلك صاحبت الظرفين قبل وبعد، على الرغم من

سبقهما بحرف جر إشارة إلى ضخامة المضاف إليه المتصور الذي لم يذكر في سياقها، وهو مخلوقات الله كلها.

١٠. أخطأ البصريون في (لعل):

قرأ حفص، والأعرج، وأبو حيوة، وزيد بن علي، وابن مقسم رضي الله عنهم جميعاً: (فأطلع) بالنصب على خلاف الرفع في قراءة الجمهور (البحر المحيط ٤٤٦/٧) في

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِي عَوْنِ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرَخاً

لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ

مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سَوْءُ

عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي

تَبَابٍ ﴿غافر/٣٦ — ٣٧. واختلف النحاة في بيان وجه

النصب، فأجازوه الكوفيون، ومنعه البصريون وخرجوه على

وجهين: الأول: أن (لعل) أُشربت معنى (ليت) فجاءت

للتمني، ونصب الفعل بعدها، والثاني: أن ذلك من باب

العطف على التوهم، لأن خبر (لعل) يُقرن بـ (أن) كثيراً

في النظم، وقليلًا في النثر، فمن نصب توهم أن الفعل المرفوع الواقع خبرًا، كان منصوبًا بـ (أن) (جهود أبي موسى الجزوالي النحوية، د. هاشم ص ١٦٥ - ١٦٦).

وأرى أن البصريين قد أخطأوا في إشراب (لعل) معنى (ليت) أو حمل النصب على التوهم، وأن رأي الكوفيين هو الصواب استنادًا إلى هذه القراءة، وأن (ليت) لم تستعمل في الآية، لأن (ليت) للممتنع حدوثه كقول الشيخ:

ألا ليت الشباب يعود يوما

فأخبره بما فعل المشيب

و(فرعون) كان يظن أنه سيطلع فاستعمل (لعل) التي يمكن أن يحدث ما بعدها، ولا يجوز (تعبيرًا عن هذا المعنى أبدا) إلا (لعل) .

وتوكيد الفعل (لأظنه) باللام قد جعله رجحانا مؤكدا مقاربا لليقين ولكنه ليس يقينا، ويتناغم والشعور الذي كان يساور فرعون، ويداعب خياله، ويخطر في سره اتجاه (موسى (ع)) وهو مقابلة معنوية لطيفة بين الترجي والظن المؤكد.

١١. أخطأ الأخص:

كفر : بمعنى غطى، والكافر هو الفلاح؛ لأنه يُغطّي الحبوب، ثم انتقلت اللفظة من المحسوس إلى المعنوي، انتقلت من تغطية المحسوس الملموس إلى التغطية المعنوية، تغطية الحق والإيمان ومناهضتهما، فصار الكافر مصطلحا يطلق على غير المؤمن وفعل بالتشديد لها عدة معان منها: نسبة المفعول إلى أصل الفعل، ومنها السلب والإزالة وجاء الفعل (كفر) بالتشديد في القرآن الكريم بمعنى إزالة الذنب وغفرانه، وورد ماضيا ومضارعا بهذا المعنى (١٢) مرة، مرتين بصيغة الماضي

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالِهِمْ﴾ محمد/٢. ومرتين بصيغة المضارع المؤكد

بالام والنون : ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ آل

عمران/١٩٥، وثماني مرات بصيغة المضارع غير المؤكد ﴿وَيُكْفِرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الفتح/٥. وجاء متعديا بنفسه

إلى مفعوله إحدى عشرة مرة، ومتعديا بـ (من) مرة

واحدة ﴿وَيُكْفِرُ عَنْكُمْ مِنَ

سَيِّئَاتِكُمْ﴾ البقرة/٢٧١. والسبب في ذلك أن غفران

السيئات كلها ارتبط بأعمال حسام، وتضحيات عظام،

فجاء مقترنا بالإيمان وحده أو الإيمان والعمل الصالح أو

الإيمان والتقوى، أو الهجرة والإيذاء والجهاد في سبيل الله،

أو الإيمان والتوبة، أو الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

واحترام الرسل والصدق، أو التقوى، أو التقوى والصبر، أو

الدعاء وطلب التكفير؛ لأن الداعي يطلب تكفير السيئات

كلها، لا بعضها. وأما تكفير بعض السيئات فجاء مقرونا

بجزئية هي إيتاء الصدقات قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا

الصدقاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تَخْفَوْهَا وَتَوْتُّوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكْفِرُ عَنْكُمْ مِنَ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ البقرة/٢٧١. لهذا أخطأ الأخفش عندما

قال بزيادتها في هذه الآية قياسا على قولهم: (قد كان من

حديث فخل عني حتى أذهب) أي قد كان حديث، لأنه لم يوازن بين السياقات المختلفة لموارد (كفر) ؛ ليتبين له أنها غير زائدة وأنها قد جاءت للتبعيض (ينظر رأي الأخص في معاني القرآن له ١٠٥/١ ات : هدى محمود قراة، القاهرة، ط١، ١٩٩٠).

ومن ذلك أربع آيات جاء فيها الفعل (يغفر) في اثنين منها متبوعا بـ (من) وفي اثنين غير متبوع بها وقد أخطأ الأخص فيها أيضا ؛ لأنه لم يفرق بين ما فيه (من) وما يخلو منها قال تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأحقاف/٣١.

وقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ نوح/٢-٣-٤. وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ

فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ
 خَيْرًا بَلَّغْتُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ الأنفال / ٧٠.

تلك الآيات السابقة الموعودون فيها غير مؤمنين أو مشكوك في إيمانهم كما في آل عمران، وآية الأحقاف فيها وعد من (جن) لقرمهم بأن يُغفر لهم شيء من ذنوبهم، وكذلك آية نوح وعد منه لقومه، أما آيتا الأنفال وآل عمران ففيهما وعد من الله على لسان نبيه محمد (ص)، النبي فيهما مأمور — (قل) وشتان بين وعد الخالق ووعد المخلوق، وعد الخالق أعظم، وأكبر، ومتحقق الوقوع، ووعد المخلوق صغير، جزئي، ومشكوك في وقوعه، وغير مقطوع به، يحتمل أن يحدث، ويحتمل ألا يحدث؛ لذا جاء وعد المخلوق مقيدا بـ (من) ووعد الخلاق يشمل محو الذنوب كلها (يغفر لكم ذنوبكم، وغير محدود، وغير مقيد مع الأسرى الذين يحتمل أن يسلموا (يغفر لكم) فيحتمل أن يشمل الصغير أو القليل، أو الكبير أو الكثير أو حتى شيء،

ولكن لو كان صغيرا أو قليلا فإن صغير الله وقليله أكبر من كل كبير وأكثر من غيره.

١٢- (من) ويوسف (ع):

أ- في الأحداث التي تدور حول يوسف (ع) آيتان وردت فيهما (بعد) مقيدة بـ (من) مرة في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْتَهُ حَتَّىٰ

حِينَ﴾ يوسف/٣٥. ومطلقة غير مقيدة مرة أخرى في

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَالدَّكَرُ بَعْدَ أُمَّتِهِ

أَنَا أَنْبِكُمْ بِمَا وَبِلِي﴾ يوسف/٤٥.

والتقيد يعكس معاناة يوسف (ع) الشديدة في البلوى التي وقع فيها، وكذلك الإطلاق، فالمعاناة في التقيد هي أنهم سجنوه مباشرة وبسرعة وبدون تأخير، ولم يعطوه مهلة مع علمهم ببراءته، وظهور الآيات عليها في قد القميص، وتحديث الجسم، وقطع أيدي المدعوات...

ومعاناته في الإطلاق هي أنه لبث في السجن مدة طويلة؛ لأن الذي أوصاه يوسف (ع) بأن يذكره عند سيده

نسي تلك الوصية، ولم يذكرها إلا بعد مدة طويلة.. كل ذلك رسمته (من) ذكرا وحذفا، وعليه فلا يمكن حذفها في الآية الأولى، ولا يمكن ذكرها في الثانية، قال الشاعر:

سريع إلى ابن العم يَلطمُ وجهه
وليس إلى داعي الندى بسريع

ب - (من) والسد:

ورد السد في القرآن مقرونا بـ (من) مرة كقوله

تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ

سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يس/ ٩ . ومطلقا غير

مقرون بها مرة ثانية وهو قوله : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْآنِ إِنَّ

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ

خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًا ﴾ الكهف/ ٩٤ .

وعلة ذلك هو أن مجيء (من) في الآية الأولى دليل

على شدة العذاب والتضييق لأن هناك سدين (أمامي ملاصق

لهم من الأمام، وسد خلفي ملاصق لهم من الخلف) فهم

واقفون لا يستطيعون الحركة، لا يستطيعون التقدم ولا التأخر، فهم في محبس واقفون، ومضيق عليهم من الأمام والخلف، أو من جميع الجهات ؛ لأن الأمام والخلف قد يشيران إلى دائرة كاملة عند فريق من المفسرين؛ كناية عن شدة العذاب، وفوق هذا وذاك فهم في أغلال مقمحون، وعليهم غشاوة لا يبصرون.

ولم تذكر (من) في سد ذي القرنين ؛ لأن ورودها يجعل السد عريضا جدا ممتدا بين المتخاصمين مكلفا اقتصاديا، ولم يستطع إنشاءه أحد، وهو دليل على أن الكلمات في القرآن الكريم موزونة بميزان دقيق لا زيادة ولا نقصان، كل بحسب ما يتطلبه المقام قال تعالى: ﴿مَّا

فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام/ ٣٨.

ج - (من) واقتصاديات قريش:

العصر الجاهلي مجتمع رعوي، رخاؤه وقحطه يعتمدان على الأمطار وقريش منهم قبيلة تتاجر مع الشام، ومع اليمن، وجاءت (من) في سورة قريش؛ لتشير إلى أنهم

لم يصابوا بجوع، ولم يصابوا بـ (خوف)؛ لأن الله سبحانه
أطعمهم من بداية حصول المجاعة، وآمنهم من بداية حدوث
الخوف، ولو حذفت (من) لجاز أن يقال: ذاقوا مرارتها ثم
جاءت العناية الإلهية بالإطعام والأمن قال تعالى:

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ

وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ قریش/ ۳- ۴. وقيل إن ذلك جاء

تلبية لـ دعوة إبراهيم (ع) ﴿ وَأَمْرُ قَوْمٍ مِنْ

الْثَمَرَاتِ ﴾ إبراهيم/ ۳۷. وقوله: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا

الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ إبراهيم/ ۳۵.

وأطلقت لفظة (أسفل) فجاءت غير مقيدة بـ (من)

في آية أخرى تتعلق بتجارة قريش، وقافلتها التي أنقذها أبو

سفيان بتغيير مسارها؛ خوفا من المسلمين الذين ترصدوا لها،

إشارة إلى الجهول الزماني والمكاني التي كانت فيه القافلة قال

تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ

السَّيْلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ، إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوةِ الدِّيْنِيَّةِ وَهُمْ بِالْعُدُوةِ الْقُصُويِّ
وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴿ الأنفال/ ٤١ - ٤٢ .

ولكنها قيدت بـ (من) عند الحديث عن معركة
الخنديق، لأن مكان الركب معروف ولم يفصله عنهم سوى
ذلك الخندق قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْاَكْرُفَا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رَحْمَةً وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا،
إِذْ جَاءُواكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ
زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الظُّنُونًا ﴿ الأحزاب/ ٩ - ١٠ .

١٢. فطفق مسحاً بالسوق والأعناق:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ، رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿ص / ٣٠ - ٣٢.

- ١- العشي، والعشاء بمعنى واحد هو أول الظلام، وقيل من المغرب إلى العتمة، أو آخر النهار (منجد ٥٠٨).
- ٢- الصافنات: الخيل التي ترفع إحدى يديها أو رجليها، وتقف على مقدم الحوافر، وقال أبو عبيدة هي التي تجمع يديها وتسويها، وقيل الواقف في الخيل وغيرها.
- ٣- الجياد: جمع جواد للذكر والأنثى.. يقال جاد الفرس، صار رائضاً.

واختلف المفسرون في معنى هذه الآيات، والمشهور عندهم أن الشمس هي التي توارت بالحجاب، وخاطب سليمان

(ع) الملائكة، فقال : ردوها عليّ؛ لأصلي، وكان صلاته
كصلاة العصر عند المسلمين، ثم جرد سيفه وضرب الخيول
في سوقها وأعناقها، فقطعها، وكانت ألفا، فأعطاه الله تعالى
الريح بدلا عنها، وتكريما له، وتناقلوا هذا لاحقا عن سابق
ومن غير تمحيص... وذكروا أن الشمس توارت، وإن لم
تذكر في السياق، وفسروا الحجاب بشيء مضحك، فقالوا
إنه حجاب من ياقوت أخضر محيط بالخلائق منه اخضرت
السماء، وقيل إنه جبل تغرب الشمس وراءه . (روح
المعاني ١٢/١٨٤).

والتأمل في الآيات يجد غير ما ذكروا، والسياق هو
الذي يوضح الحجاب وهو الذي يُعيّن المتواري، وهو
والعادات يحددان معنى المسح.. فمن عادة الناس أنهم
يركضون الخيل ثم يعيدونها، ويفحصونها لمعرفة أحسنها فهي
إذن ركضة تحميلية كما يفعل أطباء القلب في الوقت
الحاضر، فعلها سليمان عليه السلام وجماعته، ومنها يتضح
أن الصافنات الجياد هي التي توارت خلف الأفق وبعده
(١٢) كم، وليست الشمس كما قالوا، لأن الحديث عن

الجياد، وليس عن الشمس، ولما ردوها عليه بدأ يفحصها بحسب العادة في ذلك الوقت بالمسح على سوقها وأعناقها لمعرفة سرعة نبضها وتعرقها لتمييز الجيد من غيره، ولم يتم بقطع سوقها وأعناقها كما قالوا، لأن ذلك يتنافى وأخلاق الأنبياء، ويستعصي على قدرة الإنسان بقطع هذا العدد الهائل من السوق والأعناق، ولم القطع والمسألة لا تعدو كونها عملية فحص وتمييز؟

ولم أجد منهم من ذهب إلى هذا المعنى إلا الإمام الرازي ت ٦٠٤ رحمه الله، لذلك سأذكر ما قاله بتمامه، وهو: ((قال الأكثرون إنه عليه السلام فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى، وعندني أن هذا أيضاً بعيد، ويدل عليه وجوه الأول : أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله : ﴿ وَاَمْسَحُوا ﴾

بِرُؤُوسِكُمْ المائدة/ ٦ اقطعوها، وهذا لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فرمما فهم منه ضرب العنق، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم ألبتة من المسح العقر

والذبح. الثاني : إن القائلين بهذا القول جمعوا على سليمان أنواعاً من الأفعال المذمومة فأولها : ترك الصلاة، وثانيها : أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة، وقال صلى الله عليه وسلم: ((حب الدنيا رأس كل خطيئة)) وثالثها : أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة ألينة ورابعها : أنه خاطب رب العالمين بقوله : ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس، وخامسها: أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها، وقد ورد النهي عن ذبح الحيوان إلا لأكله، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لا يدل على شيء منها، وسادسها مشتمة على الأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة والصبر على طاعة الله تعالى، والإعراض عن الشهوات واللذات، وأما اشتغالها على الإقدام على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة فبمراحل عن مقتضى التعقيب فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على القول المذكور بالفساد.

والصواب أن يقال: إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين محمد عليه الصلاة والسلام، ثم إن سليمان احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل، وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله (عن ذكر ربي)، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائيين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور الأول: تشریف لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو.

الثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يياشر أكثر الأمور بنفسه.

الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض؟... فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً موافقاً، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك

المنكرات والمخدورات إلى نبي الأنبياء عليهم السلام.... ثم قال : وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا ما شاع من الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردانها، وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة، ولفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرها الجمهور كما قد ظهر ظهوراً لا يرتاب العاقل فيه، وبفرض الدلالة يقال إن الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدل دليل على صحة تلك الحكايات، ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم، ولا يلتفت إلى أقوالهم (مفاتيح الغيب للرازي ٢٦ /

١٧٩ - ١٨٠، وروح المعاني ١٢ / ١٨٧ - ١٨٨).

١٤ - { سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ

الدَّبْرِ الْقَمَرِ / ٤٥.

﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي

الزَّبْرِ، أَمْ يَقُولُونَ فَحْنٌ جَمِيعٌ مُنْتَصِ، سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ

وَيُولُونَ الدَّبْرَ ﴿ الْقَمَرِ / ٤٣ - ٤٥.

أ — (أم) هي المعادلة وقيل بمعنى (بل) وفي (يقولون) التفات من المخاطب المفترض (تقولون) إلى الغائب (يقولون) ؛ احتقارا لهم ؛ وتزيلا لمزلتهم ؛ لأن الغائب أقل درجة في الاحترام من الحاضر، كأنه ليس بذي بال أو كأنه شيء لم يكن أو هو في عداد المهمل المنسي، غاب عن العين فغاب عن الذاكرة، فقل رتبة وحظوة عن الحاضر المخاطب، حتى ولو كان عدوا ؛ لأنك إن خاطبت العدو فإنك تحسب له حسابا ووزنا، فتجادله، أما الغائب فليس من ذلك، وإن كان فهو قليل

ب — جميع: جاء على وزن (فعليل) من أوزان المبالغة في الصفة، دليل على كثرتهم ووحدهم، وجاء مرفوعا غير منصوب على الحالية (المؤقتة) دلالة على ثبوت الصفة فيهم أي أن اتحادهم ثابت غير طارئ أو مرهون بحالة معينة وزمن قصير، وأخبر عنه بالمفرد (منتصر) للتناسق الصوتي، وإشارة إلى أنهم كالرجل الواحد في تألفهم واجتماعهم على أفكارهم، وتمسكهم بها.

ج - ﴿ سَيُزَمُّ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ القمر/٤٥.

جاءت السين فيها لما يحدث في المستقبل، وكانت السين وليس سوف لأن زمن الهزيمة الموعود بها غير بعيد، فضلا على إفادتها لشيء من التوكيد، أي أن الهزيمة حتمية مؤكدة لا بد منها، وهذا ما حدث بيدر وتشير (آل) فيه إلى هذا التعريف والى عظمة هذا الجمع في كثرته وشدته وبأسه ... وبني الفعل للمجهول للتحقق السريع لما وعدوه ؛ ولأن المقاتلين في المعركة هم أناس وملائكة فلم يرد أن ينسب النصر إلى فريق منهم دون آخر، والمبني للمجهول يشملهما .. وجاء الدبر مفردا للانسجام الصوتي أيضا وتنبهها على أن هزيمتهم تحصل دفعة واحدة وكأنهم رجل واحد مهزوم.

١٥ - {سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم

بأسكم} :

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالٍ

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ

تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُنَزِّلُ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿النحل / ٨١﴾

فسرت هذه الآية على ظاهرها: السراييل جمع سربال، وهو القميص الذي لا كُفَّ فيه من أي نوع كان قماشاً، أو درعا جديداً، وفسرت تفسيراً صوفياً بأن فيها ((إشارة إلى ما جعل للعارفين من سراييل روح الأُنس لئلا يحترقوا بنيران القدس... وسراييل تقيكم بأسكم)) إلى ما من به من المعرفة والمحبة ليدفع بذلك كيد الشياطين والنفوس) روح المعاني: (٤٤٧/٧).

وأياً كان تفسيرها ظاهرياً أم باطنياً، فالآية لم تشر إلى (السراييل التي تقي البرد، لأمرين: الأول: أن السربال قميص لاكم له فلا يقي من البرد، الثاني: ذكر سربال الحر ليناسب سربال الحرب، وحرارتها وشدتها، ونار وطيسها).

١٦- رِيح عَاصِفٍ، وَيَوْمَ عَاصِفٍ وَرِيحَ عَاصِفَةٍ:

الريح تستعمل للعذاب والعقوبة في القرآن الكريم في

المناطق اليبسة (البر) قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا

بِرِيحٍ صَوَّصٍ ﴿ الحاقة/٦ . وتستعمل الرياح للخير

والتكريم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴿ الأعراف/٥٧ .

وأما في البحر فتنعكس المسألة تكون الرياح للشر،
والريح للخير إلا إذا قيدت بصفة عتو أو غيره كما سيأتي،
وعلة ذلك أن الريح على اليابسة مدمرة؛ لأنها تأتي من جهة
واحدة فتدفع ما كان في طريقها، تحطيمًا أو هدا أو اقتلاعًا،
وإذا جاءت من عدة جهات تعادلت القوى فيها
وتعاكست، فتكسرت حدتها وصارت غير مؤذية، قال
الآلوسي: (وأفرد الريح... لأنها مختصة بالعذاب، والجمع
مختصة بالرحمة، ولذلك روي عن الرسول عليه السلام أنه
قال : ((اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا)) روح المعاني
٢/٢٥٢).

وأما في البحر فالسفن الشراعية إن جاءت رياح من جهة
واحدة دفعت الشراع وسارت السفينة سيرا حسنا، وإن
جاءتها من عدة جهات تحطم الشراع وغرقت السفينة بما

فيها، والريح في القرآن وصفت بمذكر (عاصف) مرة في قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا مَرِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يونس/٢٢. ووصفت بمؤنث مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ﴾ الأنبياء/٨١. فعلل اللغويون وقالوا: إنه اسم جنس، وتأنثه غير حقيقي، فتارة يلحظ معنى الجنس فيذكر، وتارة يلحظ معنى الجماعة فيؤنث (المشكل/٧٥). وهذا كلام غير مقنع ولو كان صحيحا فلماذا مع سليمان (عاصفة) ومع غيره (عاصف)؟ أهى صدفه محضة أم تعبير مقصود؟ وما أراه هو أن المؤنث أكثر من المذكر وأضعف منه، وهذه هي دلالة التعبير في كلام العرب، تقول: ((جاء الجنود) إذا أردت القلة، وتقول جاءت الجنود إذا أردت الكثرة، وعلى هذا (فالريح عاصف) ريح قوية شديدة سريعة للعذاب أو التخويف، لأن المذكر أقوى من المؤنث وعليه فالريح عاصف أقوى وأقل زمنا، لأنها تهب مدة قصيرة ثم تهدأ، وسياق الآية يدل على هذه القوة المراد بها

التخويف قال تعالى: ﴿وَالَّذِي يُسَيِّرُ كُرْمًا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنَّ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُمُ الدِّينَ لَئِنِ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَجَاهُمْ إِذَا هُم بِبَعُورٍ فِي الْأَرْضِ بَغِيضٍ الْحَقِّ﴾ يونس / ٢٢ - ٢٣

واستنادا إلى هذه القاعدة كانت ريح سليمان عاصفة

قال تعالى: ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ فهي سريعة لكنها أقل قوة وشدة، هي سريعة لكنها غير مؤذية كالريح السابقة؛ إذ هي طائرتة التي تحمله من مكان إلى آخر، وهو الذي يتحكم بسرعتها - بإذن الله - يزيد أو ينقص، هي سريعة إذا أراد السرعة، وهي رخاء هادئة لينة إذا أراد ذلك، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً

حَيْثُ أَصَابَ ﴿ص/٣٦﴾. فشأنها في سرعتها شأن وسائط النقل الأخرى الخيل أو الجمال أو السيارات والبواخر، والقطارات والطائرات مرة سريعة، ومرة رخاء، ولا تصلح لفظة (عاصف) المذكور مع ريح سليمان أبدا؛ لأنها تؤذيه نظرا لقوتها، ولو رتبنا درجات العصف في شدتها لكانت على ما يأتي :

١- (يوم عاصف) كقوله تعالى : ﴿أَعْمَالُهُمْ كَمَادٍ

اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ إبراهيم/١٨. فكان اليوم بطوله عاصف، وهذا يدل على شدة العصف، أو كأن كل ما فيه عاصف.

٢- (ريح عاصف) شديدة وسريعة، لكنها أقل من الأولى كقوله في (يوم عاصف).

٣- (ريح عاصفة) سريعة وشديدة لكنها أقل درجة وسرعة من الأولى والثانية، وتلائم تسخيرها لسليمان (ولسليمان الريح عاصفة).

١٧. ثلاثمائة سنين:

تمييز (المئة) مفرد مجرور، وقد جاء جمعا في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ الكهف/٢٥. وقرأ حمزة والكسائي (مائة بالكسر من غير تنوين، وقرأ باقي السبعة بالكسر وبتنوين) (السبعة في القراءات /٣٨٩) واختلف العربون فيها فقال المراد إن قراءة المئة بالكسر من غير تنوين (خطأ في الكلام غير جائز) (المقتضب ٢/١٦٩) وأما (سنين) فهي تمييز أو عطف بيان، والتمييز محذوف أو أن الآية نزلت من غير سنين ثم سئل ما هي؟ فزلت (سنين).

والأرجح عندي أن المئة تمييزها مفرد كثيرا وقد يأتي جمعا إذا أريد به المبالغة أو الأنواع تقول: عندي عشرون قلما إذا كانت نوعا، وتقول: عندي عشرون أقلاما إن كانت أنواعا مختلفة، فلما كانت مختلفة؛ لطول زمنها، طقسا، واقتصادا ومجتما جمعتم لذلك... أو أن الموجود هو تمييز (تسعا) قدم لأهميته وغرابته المتأتية من طول مدته، وشدة

وقعه على النفوس، وتأثيره فيها، لأن النوم هو ساعات أو أبعاضها، وليس في التصور أن يكون سنين واكْتُفِيَ به عن تمييز المئة ؛ تحسينا لجمالية التركيب، ولأنه يشير إليه أيضا وباختصار فإنّ التقديم قد حقق جمالية التركيب، والتأثير في النفوس، والإشارة إلى تمييز (المئة) وله وجه عند النحاة لأن الكوفيين يجيزون تقديمه.

١٨. (اثنتي عشرة أسباط):

قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا هُمُ اثْنَيْ عَشَرَ سَبْطًا
أُمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ
عَيْنًا﴾ الأعراف/١٦٠.

السبط: ابن البنت في الغالب وهو مذكر، وجمعه أسباط واستعمل في كل جماعة من بني إسرائيل كالقبيلة في العرب...، والعدد ((اثنتي عشرة)) يطابق معدوده تأنثا وتذكيرا، وأما تمييزه فهو مفرد منصوب، وتكرر مجيئه في الآية السابقة مرتين خالف القاعدة النحوية في الأولى

وطابقتها في الثانية فقال اللغويون والمفسرون : ((فرقناهم
معدودين بهذا العدد أو صيرناهم اثنتي عشرة أمة يتميّز
بعضها من بعض، و (أسباطا) بدل من العدد لا تمييز له،
وإلا لكانوا ستة وثلاثين، وقال الحوفي: إن صفة التمييز
أقيمت مقامه ، والأصل فرقة أسباطا وجوز أن يكون تمييزا
لأنه مفرد تأويلا... وتأنيث اثنتي مع أن المعدود مذكر،
لتأويل ذلك بمؤنث)) روح المعاني ٥/٨٢.

وهكذا عاشوا تأويلات في تأويلات. وفاقهم أن
(أسباطا) جمع تكسير يجوز تأنيثه وتذكيره تقول: ((جاءت
الجنود، في الكثرة، وجاء الجنود في القلة، وأنها جاءت
بالجمع دليلا على اختلافهم، وتفرقهم، وتشنت أهوائهم كما
وصفهم الله تعالى: ﴿بِأَسْمِهِمْ يُنَبِّئُهُمْ شَدِيدٌ قَحْطِهِمْ جَمِيعاً

وَقَلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحشر/١٤.
وفات جمهور المفسرين أيضا أن جمع التمييز يدل على تعدد
النوع وأن أفراده يدل على نوع واحد، تقول: ((اشتريت
عشرين سمكة)) إن كانت نوعا واحدا، وتقول: ((اشتريت

عشرين سمكا)) إن كان أنواعا، وهو ما جاءت عليه الآية
وتطابقت مع وصفهم في سورة الحشر.

١٩- (هل) في القرآن باقية على

حقيقتها:

هل: أداة استفهام، وقد تخرج عن الاستفهام الحقيقي
إلى معان مجازية - عند كثير من العلماء - عدّ بعضهم
منها (أحد عشر) معنى، وأرجعها بعضهم إلى ثلاثة معان،
هي:

١- النفي: إن جاءت بعدها (إلا) كقوله تعالى: ﴿هَلْ

جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن/٦٠.

٢- الأمر: كقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ

بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ

عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُنْهَوُونَ﴾ المائدة/٩١.

٣- قد: كقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ

الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ الإنسان/١.

واقنع الباحثون لغويون، ونحويون، وبلاغيون بهذا، أو حاولوا إقناع أنفسهم، وعلى مر العصور قديما وحديثا، ولكنني أرى أن (هل) باقية على وجهتها في الاستفهام الحقيقي، ولو أراد سبحانه المعاني المجازية التي ذكروها لذكرها، ولا داعي أن يذكر شيئا ويريد غيره، يذكر (هل) ويقصد بها (ما) أو الأمر، أو قد، لو كان ذلك حقا لكانت الآيات السابقة على النحو الآتي: (ما جزاء الإحسان إلا الإحسان) و(انتهوا عن الميسر، وشرب الخمر) و(قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا...) وهكذا في كل الآيات التي وردت فيها (هل) في القرآن خارجة عن حقيقة معناها كما يدعون.

وتوضيح ذلك أن الاعتراف سيد الأدلة، وأن إجابة المسؤل عن السؤال دليل عليه بأنه هو الذي أجاب، إنه مقرّ بما قال غير منكر له، وأن السائل يستطيع أن يلزمه به، ويقول له: أنت الذي أجبت وأنت الذي أقررت، فأنت إذن ملزم بما

قلته، ولعلك ألا تحيد عنه، فإذا قيل لشخص مثلاً ((ما جزاء
الإحسان إلا الإحسان) فهو، حر مخير يصدق أو لا
يصدق، وهو غير ملزم بالأخذ به أو تركه، ولكن الآية
جاءت بالاستفهام ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن/٦٠، لأن الأسلوب القرآني يطلب أن
يجيب السامع، وأن ينتزع الجواب منه، فإذا قال : نعم،
فيطالب بما أقرّ به، وإذا أجاب بـ (لا) عُرِفَ أَنَّهُ مَنْكِرٌ
وغير راض عما سئل عنه...، وإذا قيل : (انتهوا عن عمل
ما) فهم مخيرون، فإن كانوا مطيعين انتهوا وتركوا، وإن لم
يكونوا كذلك استمروا، وإذا قيل لهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ

مُنْهَوْنَ﴾ المائدة/٩١. فإن أجابوا بـ (نعم) أصبحوا
ملزمين بالانتهاء، وإن رفضوا عُرِفُوا بِمَنَاهِضَتِهِمْ لِلْقَوْلِ، وإذا
قيل لهم (قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً
مذكوراً) كان كلاماً خبيراً قد يصدق أو لا يصدق،
والسامع غير ملزم به، وفي قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى

الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا

مذكورا ﴿ الإنسان/ ١ إن أجاب المخاطب بـ (نعم) فلا

يمكن أن يُنكر بعد ذلك، وإن أجاب بـ (لا) عُرف رأيه،

فالكلام الاستفهامي يعرف رأيه فيه من خلال إجابته بـ

(نعم أو لا أو بالتعيين) وهو ملزم بما يجيب أقر أو لم يقر،

والاعتراف سيد الأدلة كما قلنا، ولهذا جاءت أساليب

الاستفهام كلها في كتاب الله غايتها إشراك المخاطب

بالأمر، وانتزاع الجواب منه؛ ليكون جوابه شاهدا عليه،

ودليلا على حاله، وليس كما قال علماء العربية بخروجه إلى

تلك المعاني التي أشير إليها في بداية الكلام.

٢٠. (مت، وميت) بضم الميم وكسرهما:

الضمة والكسرة متقاربتان صوتيا لكن الضمة أثقل

منها، والقبائل القوية تستعمل الضمة لتضخيم أصواتها

لمناسبة قوتها، وكثرة عددها، والقبائل الضعيفة أو التي

اعتنقت اليهودية تستعمل الكسرة كثيرا، والقبائل التي

اعتنقت المسيحية تستعمل الفتحة أو الألف بكثرة، وحتى

العصر الحديث وهذه ظاهرة اجتماعية . القوي يتكلم بملء فيه، وتظهر عليه قوته في مشيه، وملابسه، وسلاحه، وتصرفه، والضعيف يختلس الكلام اختلاسا، وما بينهما لا تسمع منه سوى (آ) لا يريد أن يُغضب القوي فيصير مثله، ولا مخالفة ما في داخله من شعور بالقوة — أيا كان نوعها — فيصير ضعيفا هو بين القوة والضعف وكذلك الفتحة بالنسبة للحروف الصغيرة، والفعل (مات) تتضح فيه هذه الظاهرة الاجتماعية، إذ فيه لهجات متباينة مات يموت، ومات يميت، ومات يمات، وقد عُدَّ بعضها من تداخل اللهجات، وتأثير بعضها في بعض مثل (مات يمات) ؛ وانسجاما مع القوة والضعف نفترض أن (مات يموت) لهجة القبائل القوية عدة وعددا ومات يميت لهجة القبائل الضعيفة، ومات يمات لهجة القبائل الآرامية المسيحية.

والنحاة قرروا أن الفعل الأجوف المبني للمجهول يكسر أوله إن كان واويا، ويضم أوله إن كان يائيا ؛ مخالفة للإسناد إلى الضمير الفاعل أو نائبه نحو (مُت ميت) وبعث وبعثت ؛ لتكون هذه المخالفة أمانة البناء للفاعل أو المفعول

... ولكن القرآن الكريم استعمل الضم والكسر في الإسناد للفاعل الضمير (مُتٌ، ومِتٌ) والفعل (مات) ورد في القرآن مسندا إلى ضمير المتكلم أو المخاطب إحدى عشرة مرة، ف جاء بالكسر في (تسعة مواضع) كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْشِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ مريم/٢٣. وقوله ﴿أَبَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمُ وَكُنْتُمْ أَبَاءَ وَعِظَامًا أَنْكُمْ مَخْجُونٌ﴾ المؤمنون/٣٥. وكذلك الآيات، مريم/٦٦، الأنبياء/٣٤، المؤمنون/٨٢، الصفات ١٦، ٥٣، ق/٣، الواقعة / ٤٧، وقد جاء بضم الميم (مُتَم) في سورة آل عمران في الآيتين (١٥٧، ١٥٨) وعلة ذلك أن سياق هاتين الآيتين سياق موت بالسيف أو السير إلى مسافات بعيدة للجهاد، وغيره، وفي ذلك من المشقة ما فيه؛ لذا ضُمَّ أولُ الفعل تعبيرا عن ذلك، وإشارة إليه، لتقابل الضمة الثقيلة، الموت الثقيل المخيف بالسيف، أو بالابتعاد عن الأهل والعشيرة والأوطان قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَبُّوا فِي
الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا
لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُجِيبُ وَيُمِيتُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ
مُتُّمَ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ، وَلَئِنْ
مُتُّمَ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴿ آل عمران / ١٥٦ -

.١٥٨

٢١- وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (البلد/ ١٠):

قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْتَ حَلِ
بِهَذَا الْبَلَدِ، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي
كَبَدٍ، أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، يَقُولُ
أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ، أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرِثْهُ أَحَدٌ، أَلَمْ

نَجَدْنَاهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ

النَّجْدَيْنِ ﴿البلد/ ١-١٠.

يرى جمهور المفسرين أن النجدين هما (طريقا الخير
والشر) وهو ما يُدرّسونه في المدارس عامة، وحتى
الجامعات، ويذكر بعضهم - على استحياء - أنهما ثديا
الأم، وأنا أميل إلى هذا الرأي، وأرجحه بل وأجزم به
للأسباب الآتية:

١- سياق الآيات السابقة هو الحديث عن عملية الولادة
(الوالد، والولد) وعن خلق الإنسان، وبداياته الأولى
ولاسيما زمن الرضاعة منها...

٢- الحديث عن العينين لرؤية الشيء المراد (ثدي أمه)
للاستمتاع بمنظرهما.

٣- ذكر اللسان والشفَتين وهذه كلها يستعملها الطفل في
الرضاعة ولا يستعملها في السير على هذا الطريق أو ذاك
(طريقي الخير والشر).

٤- الطفل يخرج من بطن أمه، وهو يعرف مص الثدي أمه ولولا هداية الله لما عرفهما وهو المقصود بقوله تعالى (وهديناه النجدين) .

٥- إن الله لا يهدي إلى الشر، وإنما يحذر منه، وذكر عقوبة من يسير عليه فكيف يقول المفسرون (النجدان طريقا الخير والشر) والشر أحد الطريقين ولا يهدي الله إليه أبدا.

٦- إن بعض المفسرين ذكر أن النجدين هما النهدان ونسبة إلى الإمام علي وابن عباس عليهما السلام، لأنهما طريقان لحياة الولد ورزقه، وارتفاعهما ظاهر، والبطن تحتها كالغور (روح المعاني، الآلوسي ١٥/٣٤٩ - ٣٥٣).

٧- العرب تسمي النهدين بالنجدين، وتقسم بهما فتقول : أما ونجديها ما فعلت (روح المعاني ١٥/٣٥٣).

٨- الجناس الصوتي بين (نجد ونهد، ونجدين ونهدين) ولعلهما من اختلاف اللهجات العربية

٩- الداعية الإسلامي الدكتور محمد راتب يذهب إلى أنهما الثديان، ويقول : ((يؤكد علماء نفس الأطفال أن الطفل حينما يولد لا يملك أي قدرة إدراكية، بل إن كل ما يتمتع

به الراشد من إمكانات، وقدرات، ومفاهيم، ومعقولات
وخبرات، ومؤهلات، إنما هي نتيجة تفاعلية مع البيئة، وهذا

فحوى الآية الكريمة : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ
أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل/٧٨.

لكن منعكسا على حد تعبير علماء النفس يولد مع الطفل،
ولا يحتاج إلى تعليم، إنه منعكس المص، إذ لولاه لما وجدت
إنسانا على سطح الأرض في قاراتها الخمس إن الطفل الذي
يولد من توه لا يستطيع أن يتلقى توجيهات والده في
ضرورة التقام ثدي أمه وإحكام إطباقهما، ثم سحب الهواء،
كي يأتيه الحليب، لا يستطيع أن يتلقى هذه التوجيهات
بالفهم فضلا عن التطبيق (موسوعة د. محمد راتب

ص ١٨٣).

٢٢- آمين وامين، وامين بالتشديد ليست

منه واختلفوا فيها:

كلمات يرددها كثير من المصلين بعد قراءة الإمام للفتحة، وبعضهم يقولها بالقصر والتخفيف (امين) وبعضهم يدها وبالتخفيف أيضا (آمين) على لغة بني عامر، وبعضهم يدها بالتشديد، وعُدّ هذا لحنا.

واختلف الفقهاء في ذكرها، فقال بعضهم تذكر جهرا، وقال آخرون تذكر خفيا، وقال فريق ثالث لا تذكر، لا خفيا ولا جهرا، وأجمعوا على أنها ليست من القرآن؛ لأنها لم تكتب في المصحف الإمام، ولا في غيره، حتى قالوا: من قال إنها من القرآن فقد كفر، وشذ مجاهد عنهم ورأى أنها منه (روح المعاني ١ / ١٠٠).

والشائع في المؤلفات، وعند العلماء أنها اسم فعل مرتجل بمعنى استجب، قال ابن مالك:

ما ناب عن فعل كشتان وصه

هو اسم فعل، وكذا أوّه ومه

وما بمعنى افعال كـ (أمين) كثر

وغيره كـ (وي) (وهيات) (نزر)

وقيل إنها أعجمية أصلها همين، وهم يصفون كل لفظ
بهذه الأوصاف إن لم يعرفوا أصله، والأزجح عندي إنها
ليس اسم فعل، ولا لفظا معربا، وإنما هي اسم مشتق على
وزن فعيل، وهو اسم من أسماء الله، وإعرابه منادى بحذف
حرف النداء منه إن قلنا (أمين) ومعه حرف النداء إن قلنا
(أمين)، أدغمت همزة النداء بهمزته الأصلية فصارت مدا،
وهو نداء يراد به الدعاء، وتحقيق ما ورد في السورة من
(اهدنا الصراط المستقيم...) إلى آخره، فعندما يقول الإمام
(اهدنا الصراط) فإن السامع ينادي، ويدعو، ويقول (يا
الله) ولكنه لم يذكر لفظ الله، وإنما يذكر اسما له آخر هو
(أمين) انسجاما مع فواصل السورة، وأما من شدد، فلا
أرى له وجها والعلماء نصوا على لحنه، وبعضهم سوغه على
أنه جمع آم، أي: قاصد، فيكون المعنى متوجهين إليك يا
الله، ومنذ سنوات بعيدة رأيت ابن خالويه في إعراب ثلاثين
سورة من القرآن قد ذهب إلى ما ذهبت إليه، فهو رأيه،

قال ليما الصادق : هي بمعنى ^{أصل} معاني الأخبار ^{ص ٤٩}
قال الخليل : " هو اسم من أسماء منى " العين / ١ / ج ٥
وسئل عنه ثعلب في محاله ١٤٨ / ١
ولكنني شايسته، ووضحته ونفخت الغبار عنه، ونشرته،

وبعث فيه الحياة لتصحيح خطأ شائع عند الناس .

٢٣- { أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ

عَنِيدٍ } ق/٢٤ .

في مخاطبة الاثني عشرة آراء هي :

أ- ثني للتوكيد كأنه قال: ألق ألق.

ب - إنه فعل أمر مؤكد بالنون هو ألقين، فأبدل الألف

من النون

ت - إن العرب تخاطب الواحد مخاطبة الاثني .

ث - رأي رابع، وهو أصحها، ولكن الجمهور لم يأخذ

به، وهو خطاب للملكين اللذين يرافقان الشخص، وهما

السائق والشهيد قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا

سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ق/٢١ .

٢٤- ظَلَامٌ :

وردت كلمة (ظلام) على وزن (فَعَّال) صيغة

مبالغة في القرآن الكريم منفية بـ (ليس) عن ذات الله

خمس مرات، ولم ترد مرة واحدة بصيغة اسم الفاعل (ظالم) منفية أو مثبتة لله تعالى، قال سبحانه : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ آل عمران/ ١٨٢.

وقد بحث فيها المفسرون واللغويون كثيرا، وعدوها من المشكل، لأن نفي الكثير ليس بالضرورة أن ينفي الصغير عنه، وقالوا : (ليس بظالم) نفي كثرة الظلم، ولكن يحتمل أن القليل لم يُنف عنه، وحاولوا تفسيرها، وذكروا آراء متعددة (انظر معترك الأقران ١/٣٢٦ - ٣٢٧، البرهان في علوم القرآن ٢/٣١٤) وفاقم أو فات فريق منهم أن صيغة المبالغة تأتي من شيئين : الأول : كبر حجم الشيء، الثاني : كثرة عدده، فنقول : (ظالم) إن كان، الظلم كبيرا أو كثيرا يشمل مجموعات عديدة، والآيات الخمس كلها تتحدث في سياقها عن أناس أساءوا ؛ فعوقبوا جزاء وفاقا على أعمالهم ؛ لذا جاءت صيغة (ظالم) في تلك الآيات ؛ لتناسب كثرة المعاقبين ؛ ولتقابل كلمة (عبيد) وعلى هذا فإن الله سبحانه نفى الظلم كله عن ذاته سواء كان كبيرا أو كثيرا، وأكد

ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾

النساء/٤٠.

٢٥- فتبسم ضاحكا من قولها - النمل / ١٩:

الحال في خمس آيات من القرآن الكريم، وربما في غيرها يحتاج إلى إمعان نظر، وتدبر عسى أن يصل الباحث فيها إلى معرفة كنهها أو إلى شيء قريب منه، وهي:

١- (معرضين) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي

إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْنَا الْأَقْلِيَّةَ مِنْكُمْ

وَأَنْتُمْ مَعْرِضُونَ ﴿البقرة/٨٣﴾

٢- (مدبرين) في: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُوزُكُمْ فَلَمْ تَتَّعِنَ عَنْكُمْ

شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ

مُدْبِرِينَ ﴿التوبة/ ٢٥﴾

٣- (مفسدين) في ﴿وَإِذَا اسْتَشَقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَمَثَلْنَا

أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا قَدْ

عَلِمَ كُلُّ أَنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُّوْا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ

وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿البقرة/ ٦٠﴾

٤- (ضاحكا) في ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ

قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّ

يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَبَسَّمَ

ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴿النمل/ ١٨- ١٩﴾

٥- (أنكاثا) في ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَصَتْ غَزْلَهَا

مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴿النحل/ ٩٢﴾

فالجمهور من النحاة والمفسرين قال : إنها أحوال
مؤكدة لعواملها لقرب معانيها مما قبلها، لقرب معنى
(معرضين ومدبرين) من (تولّى) ومفسدين من تعثوا
وضاحكا من (تبسم) فقال أبو حيان : ((التولي بالجسم،
والإعراض بالعقيدة (البحر المحيط، أبو حيان ٤٠٩/١،
٢٩٩/١) وذكر الرازي ثلاثة آراء أهمها أن المتولين في زمن
موسى، وأن (المعرضين) في زمن الرسول محمد عليهما
السلام (التفسير الكبير ١٥٥/٣، وقال الألويسي : (تولى :
انصرف عن المكان لكنه قد يكون باقيا على عقيدته
وأعرض انصرف عن المكان وعن العقيدة (انظر روح المعاني
٣١٠/١).

ورأى الشيخ محمد متولي الشعراوي أن للتولي سببين :
أحدهما كرها للمتولى عنه، والثاني : حبا له ؛ لئلا يخرج عند
رؤيته له كأن له دينا عليه وعندما يراه يتألم منه فيتولى عنه
تفاديا للإحراج (قرص ليزري).... وتذكر المعجمات أن
التولي من الأضداد يطلق على الذهاب والإياب، وقد يكون
بترك الإصغاء، وأعرض ولى مبديا عرضه (مفردات ألفاظ

القرآن ص ٥٥٩، ٨٨٦)، وما زال ولي، مستعملا بمعنييه
في الأقطار العربية، فاللييون يستعملون (ولى) بمعنى : عاد
والعراقيون يقولونها بمعنى ذهب، ومن أجل هذا يؤتى بالحال
بعده تحديدا للمعنى المقصود أهو الذهاب أم الإياب ؟ أهو
من مصلحة المعرض عنه أم لا؟، وعليه فهي حال مؤسسة،
وليست مؤكدة ؛ لأن المعنى المراد متوقف عليها، فأتي بـ
(وأنتم معرضون) للدلالة على التنحي إلى جهة في الشمال
أو اليمين تعبيرا عن عدم الرضا على ما قيل لهم، وما دعوا
إليه، ومثله الحال في (ثم توليتم مدبرين)، فإنها حددت معنى
التولي بأنه — هنا — ذهاب لا رجعة فيه، هروب حقيقي،
وفرار أكيد وبعيد من المعركة، وليس هو من باب الكر
والفر، أو التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة مؤمنة، كما جاء
في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمُ نَوْمًا دُبُرًا إِلَّا مَنْحَرًا فَا
لِقِتَالٍ أَوْ مُنْحَرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَنَدَّ بَاءٌ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاوَأهُ
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ الأنفال/١٦. والفرق بين الإعراض
والإدبار هو أن الإعراض في العقيدة، والإدبار في الهرب

والخوف قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ

كَأَنَّهُا جَانٌّ وَلَمَّا مُدِبِرًا أَلْمَرَ نَعَتِبَ﴾ النمل / ١٠.

وهو أيضا اختلاف في وضعية جسم المتولي فقد يكون انحرافا قليلا وهو الإعراض، وقد يكون كُليًا وهو الإدبار، والسير إلى مسافة أطول، وهو يناسب الهروب البعيد من المعركة الذي أشارت إليه الآية، وأما المعرض فقد يفعل هذا ويبقى قريبا من المعرض عنه وقد يفعله ويذهب بعيدا ؛ لأن اللفظة لا تحدد ذلك.

والمعاجم تذكر أن الفعل (عثا) أفسد أشد الفساد

(منجد ٤٨٧) وأنه واوي ويائي : عثا يعثو عثوا، وعشى

يعثى عثيا، وقال الراغب : (العيث، والعثي يتقاربان نحو

جذب، وجبذ إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد يدرك

حسا، والعثي فيما يدرك حكما (مفردات ألفاظ القرآن /

٥٤٦) فالمعاجم إذن تُجمع على أن معناه الإفساد ولكن

القرآن الكريم قد ذكر أن الفعل قد يكون إفسادا، ويقصد

به الوصول إلى الخير ﴿وَعَسَى أَنْ تَكُنْ هُوَ أَشْيَأَ وَهُوَ

خَيْسُ لُكْمٍ ﴿البقرة/٢١٦﴾ . يستفاد ذلك من خرق العبد

الصالح للسفينة، وقتله الغلام، قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ

إِذَا رَجَبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا ﴿الكهف/٧١﴾ . وقال: ﴿فَانْطَلَقَا

حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي فَمَا لِي بِنُفْسِي بِغَيْرِ

نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً ذُكْرًا ﴿الكهف/٧٤﴾ . ثم قال:

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْطِعْ

عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿الكهف/٧٨﴾ . ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ

لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَمْرَدَتْ أَنْ أَعْيَبَهَا وَكَانَ

وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الْغُلَامُ

فَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِمَهُمَا طُغْيَانًا

وَكَفَرًا، فَأَرَدْنَا أَنْ يُدِلَّهُمَا رِيهَمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً
وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿الكهف/ ٧٩- ٨١.

وعليه جاء قوله تعالى : (ولا تعشوا في الأرض
مفسدين، فالحال فيها حددت نصا في الإفساد ظاهرا
وباطنا، ومعه تكون الحال مؤسسة لا مؤكدة كما قال
النحاة ؛ لأن حذفها يجعل الذهن ينصرف إلى المعنيين اللذين
يقصد بهما الإفساد ظاهرا وباطنا، والإفساد ظاهرا لا باطنا.
ومن ذلك الحال في (تبسم ضاحكا من قولها) فالفعل
(بسم) ضحك قليلا من غير صوت (منجد ٣٨) والعرف
جعل التبسم يحصل رضا ومسرة، أو استهزاء وسخرية،
فتقول : (فلان تبسم هازئا وساخرا) و(فلان تبسم راضيا
ومسرورا) و(ضاحكا) في الآية حددت التبسم بالرضا
والمسرة فهي حال مؤسسة لا مؤكدة كما قالوا ؛ لأن
حذفها يجعل التبسم يحتمل المعنيين اللذين اكتسبهما من
العرف الاجتماعي: الرضا والمسرة، والسخط والهزاء.
والفعلان : نقض ونكث متقاربان معنى وصوتا،
ويبدو أن (نكث) يمنية ونقض — وهي أقوى منها —

جزرية (حجازية أو نجدية أو تهامية) وهكذا، ولكن العرف
 فرق بينهما كما سنرى، والمعجمات تفسر إحداهما
 بالأخرى تفسر نقض بـ (نكث، ونكث بـ (نقض) ولا
 تفرق بينهما، وكذلك المفسرون، ولذا فالجميع يعدون
 (أنكاثا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضُوا
 غَزَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ النحل/٩٢. حالا مؤكدة،
 والذي أرجحه أنها حال مؤسسة لا مؤكدة، ولو أريد
 التوكيد، لكان التوكيد الأقرب والأوضح بمصدر الفعل
 (نقض) ولم يعمد إلى (أنكاثا) ولقيل (نقضت غزلها نقضا)،
 والصورة التي ترسمها الحال المؤسسة هي ليست الصورة التي
 ترسمها الحال المؤكدة، فالمؤكدة تؤكد حصول النقضين
 والمؤسسة تعطي صورة إضافية للنقض، فهد البناء نَقَضُ،
 ولكن تفرقه لبنة لبنة نَكْثُ، وحل الجبل نَقْضُ، وأن تعمد
 إليه وتجعله أجزاء فهو نَكْثُ، وحل ضفيره المرأة نقض
 وتمشيطة وتحريكه إلى الأعلى والأسفل نَكْثُ.

فالنقض أول، والنكت ثان، يحدث النقض ثم النكت؛
ولهذا جاء (أنكاثا بعد نقض، ولو لا ذلك لجاز أن يكون
التركيب (ولا تكونوا كالتى نكثت غزلها أنقاضا) .
ومعنى نكت أراه قريبا من النفس، فالبناء لو سقط
وحده نقض، ولو أسقط بصاروخ فهو نكت، والصورة
مختلفة كما ترى، ونساء نجد — كما قيل — ينقضن غزلهن
وينكثنه، ويخلطنه بالصوف إن لم يكن فيه ثم يغزلنه، وعمل
(ربطة) المجنونة التى قصدت بالآية (روح المعاني ٧ / ٤٥٩)
نكت لأنها تنقضه ثم تفرقه وتنفضه، وتنكته، ولفظة (أنكاثا)
تنسجم وعمل المجانين تماما، لكثرة عبثهم بالغزل، ومجيئه
جمعا فى الآية دليل على تفرق المغزول أجزاء صوفا كان أم
وبرا أم شعرا، وليس نقضا فقط وهذا ما نسمعه فى
الاستعمال العربى اللهجى عند العراقيين فيقولون: (نكثته
نكثا، ولم أجد فيه شيئا).

٢٦. { قال ما منعك ألا تسجد الأعراف } / ١٢ :

فى القرآن الكريم آيتان متشابهتان : إحداهما — (لا)

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ الأعراف / ١٢ ، والثانية بدون (لا)

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ

يَدَايَ...﴾ ص/٧٥. فقيل إن (لا) زائدة لتوكيد

النفي، وقيل غير زائدة وإن المنع مجاز عن الإلجاء والاضطرار، فالمعنى ما اضطررك إلى أن لا تسجد؟، وقيل :

إنها منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود (روح المعاني

٣٢٨/٤) وقال القرطبي: (إن المنع فيه طرف من القول

والدعاء، فكأنه قال : من قال لك ألا تسجد؟ أو من دعاك

إلى ألا تسجد كما تقول : قد قلت لك ألا تفعل كذا،

وقيل في الكلام حذف، والتقدير : ما منعك من الطاعة

وأحوجك إلى ألا تسجد). (الجامع لأحكام القرآن

١٧٠/٧).

ويمكن أن يقال : إن الأسلوب القرآني جاء بالفعل (منع)

دون (قال)؛ لأن المنع فيه اتساع في المعنى ؛ إذ يشمل القول

والرجاء، وإبداء الحججة للوصول إلى الإقناع، وهكذا يكون

المنع، وأما (ما منعك ألا تسجد) ففيها فوق ذلك (تهديد)

متأت من معنى النفي والتوكيد، فلو حذف (ما منعك

أن.. لبقيت (لا تَسْجُدْ)، ولأن المنع يكون بكل ذلك، يبدأ

بالقول والرجاء وقد ينتهي إلى التهديد جاءت الآياتان
مجتمعتين متكاملتين تعبران عن الوسائل التي تُوصل إلى المنع
وتؤدي إليه، فهي من غير (لا) منع بإقناع، ومع (لا) كأنه
منع (مادي) لزيادة شعوره بالعظمة.

وإبليس في حالتي النفي والإثبات لم يمنعه أحد، ولكن
هاجسا داخليا هو الذي منعه في حالة الإثبات، وهذا
الهاجس هو شعوره بأفضليته على آدم بدليل قوله: ﴿قَالَ

مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي

مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف/١٢. ومع النفي

(ألا تسجد فإن هاجسه قوي وكبر حتى صار لقوته كأنه

ذات تجسدت أمامه، وألحت عليه بصوت عال وتهديد،

وأمرته بالامتناع عن السجود فامتنع، وقد جاءت (لا)

النافية بمدتها الطويلة مشيرة، إلى هذا الشعور المتزايد بالعظمة

الذي أصبح قوة مانعة وقد جاء السؤال بـ (ما) دون

(من)؛ لأن المانع شعور وليس ذاتا — كما قلنا — ولأن

المانع من أمر الله (غير عاقل) حتى لو كان ذاتا لها كل العقل والإدراك.

ومع ذلك كله، فالذي قال : إنها للتنيه قارب روح

اللغة قياسا على (ما) في إنما، وإذا ما، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ

اللَّهِ لنتَ لَهُمْ﴾ آل عمران/ ١٥٩.

وقد جاءت من غير (لا) في سورة (ص) انسجاما

مع الإيجاز فيها وجاءت بها في الأعراف تساوقا مع الإطناب فيها.

وقالوا : إن لا زائدة في قوله تعالى : ﴿لَفَلَّا يَعْلَمَ

أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الحديد/ ٢٩. ولكن أبا سعيد السيرافي قد

وجد لها تخريجا على غير الزيادة، وقال : ((إن لم تجعل —

لا — غير زائدة جاز ؛ لأن قوله ﴿يُؤْتِكُمْ كَثَلِينَ مِنْ

رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لَفَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا

يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿الحديد/ ٢٨—

٢٩. (أي يفعل بكم هذه الأشياء؛ لتبين جهل أهل الكتاب وأنهم لا يعلمون ما يؤتيكم الله من فضله، ولا يقدرُونَ على تغييره، وإزالته عنكم فعلى هذا لا يحتاج إلى زيادة (لا) (إعراب القرآن المنسوب للزجاج / القسم الأول ص ١٣٤، مصر ١٩٦٣.

٢٧. { من كل فج عميق } الحج / ٢٧:

قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ

رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ

عَمِيقٍ ﴿الحج/ ٢٧.

رجالاً : جمع راجل أي مشاة، كقيام جمع قائم، وقرأ

ابن أبي إسحاق (رُجالاً بضم الراء والتخفيف ... اسم جمع،

أو هو جمع نادر، وعن ابن عباس ومحمد بن جعفر، ومجاهد

(رضي الله تعالى عنهم أجمعين) رُجالاً بضم الراء وتشديد

الجيم مثل تاجر وتُجار، وعن عكرمة (رُجالى كـ

(سُكارى) وهو جمع (رجلان) أو راجل، ... وعلى كل

ضامر : أي : ورُكبان عطف على (رجالا) ... وعدل عن
(رُكبان) للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة ...
وفي الآية دليل على جواز المشي والركوب في الحج،
وبتقدم (رجالا) دليل على أن المشي أفضل... واستدل
بعضهم على أنه لا يجب الحج على من في طريقه بحر، ولا
طريق له سواه لكونه لم يذكر في الآية ... والفتح شقة بين
جبلين ... ويستعمل في الطريق الواسع .. وعميق أي بعيد
وهو البعيد سفلا، وقرأ ابن مسعود (عميق) قال الليث :
يقال عميق، وعميق لتميم، وأعمقت البئر وأمعقتها، وقد
عمقت ومعقت عماقة ومعاقاة، وهي بعيدة العمق
والمعق(انظر روح المعاني ٩/١٣٧ — ١٣٨). ومفردات
ألفاظ القرآن / الراغب ص ٥٨٧.

هذا كل ما قالوه عن القراءات في الآية، وعن معنى
كلمة (عميق) البعيد سفلا، ولكنهم سكتوا، ولم يعرفوا سر
العدول إلى (عميق) بدلا من (بعيد) ؛ لأن كروية الأرض
لما تعرف بعد... ولما عرفوها رأوا أن كلمة عميق تشهد
بإعجاز القرآن منذ مئات السنين، بأن الأرض كروية، ولو

كانت مسطحة كما كان يُعتقد وقت نزول القرآن لوردت كلمة بعيد أي (فج بعيد) لأن كلمة بعيد تفيد المسافة بين شيئين على مستوى واحد، ولكن الأرض كروية، والقادمون إلى مكة المكرمة يأتون من بقاع الأرض، ومن نواحي شتى لذا قال تعالى (من كل فج عميق) (موسوعة الإعجاز العلمي، يوسف الحاج احمد ص ٩٥٨) لأنه يُعبّر عن المنحنى في المسير على شكل كروي، فكل عميق بعيد، وليس كل بعيد عميقا، إضافة إلى ما فيه من المشقة والتعب؛ لأن السير من أسفل إلى أعلى أكثر جهدا وصعوبة من السير على مستوى واحد، كما أنه يناسب الصورة التي ترسمها كلمة (ضامر) الدالة على الهزال والضعف، نتيجة لهذا السير المتعب.

٢٨. دلالة التركيب على السرعة:

التركيب لها دلالات متعددة أهمها المعنى؛ لأن التعبير إنما يُساق له، وقد يدل على معاني هامشية ترتبط به ارتباطا وثيقا، يوحي بها، وهي ظل من ظلاله، لا تفارقه أبدا كالحالة النفسية التي عليها المتكلم كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا

مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ يُمِينُهُ فَيَقُولُ هَذَا وَمُؤَقَّرٌ وَوَأُ

كِتَابِيهِ ﴿ الحاققة/ ١٩ . فإن الأمر (والهاء) في (كتابه) يرسمان

صورة إنسان فرح يلهث لشدة فرحة، يريد من الآخرين

قراءة كتابه، والاطلاع على ما فيه ...، ومنها الدلالة على

السرعة التي يقع فيها الحدث، ولها مناحي متعددة وتتمثل في

رفع الفعل و(من) الابتدائية، والحذف في بعض صورة،

والدلالة المعجمية للكلمة والفاء الرابطة:

أ- رفع الفعل : المضارع يدل على الحال والاستقبال،

ويأتي مرفوعاً ومنصوباً ومجزوماً، والنحاة ربطوا النصب

بزمان الاستقبال، والمرفوع منه يدل على الحال والاستقبال،

ولكنه قد ينحصر في الحال فقط؛ لأن ما بعده يحدث بسرعة

نظراً لقدرة قائله المطلقة على إيقاع الحدث، وكأن هذه

الطلاقة قرينة تحدده بالحال ؛ ولذلك امتنع النصب في

(يكون) وأجمع القراء على رفعه في قوله تعالى ﴿بَدِيعُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ ﴿ البقرة/١١٧. وباختصار فإن الرفع يدل

على الحال والاستقبال — كما قلنا، ولكنه ينصرف إلى الحال إن كان القائل متمكنا من إحداث الفعل بالوقت الذي يريد، والسرعة التي يريد... ومن ذلك رفع الفعل (فتصبح) الذي دل على السرعة وعلى استحضر الحال

الماضية في قوله تعالى: ﴿الْمَرْتَنَ أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَصَبَّحُ الْأَرْضِ مُخَضَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ ﴿ الحج/٦٣.

ب — (من) حرف لابتداء الغاية يفيد الاتصال : تقول : (سرت من البصرة) أي ابتداء سيرك منها، ومتصل بها في بدايته، ومتجه إلى غيرها من الأمكنة، وقال أصحاب العربية: ((من للاتصال، وعن للانفصال)) ومن ذلك اتصال

الأمن النعاس بالغم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ

بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَّعَاسًا ﴿ آل عمران/١٥٤. لأن هذه الآية

نزلت في الحديث عن معركة أحد، وكان التعب والغم فيها

قد أصابا المؤمنين، فمن الله عليهم بنوم سريع ليستردوا قوتهم، وينسوا ولو قليلا ما حصل لهم، وجاءت (من بعد) مشيرة إلى سرعة الفضل بإزالة الغم واليأس والتعب عنهم.

ج — حذف الفعل في بابي التحذير والإغراء نحو (النارَ النارَ) (الصدقَ الصدقَ) وحذف الفعل في قوله تعالى:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ

الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا...﴾ البقرة/٦٠.

إذ التقدير : ((فضرب فانفجرت) ولكن (فضرب) لم تأت في التعبير دليلا على السرعة التي حدث فيها الانفجار،

ومنه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْهُ بِعَصَاكَ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ

الْمَوْتَى...﴾ البقرة/٧٣. والتقدير : فضربه فعاتت له

الحياة فقال قتلني فلان، ولكن ذلك لم يذكر للسرعة أيضا.

ع — ه — حذف الفاعل، وبناء الفعل للمجهول،

وكذلك دلالة الفعل بحروفه على السرعة، فالسعي أسرع

من المشي، وبلع الماء — مثلا — أكثر سرعة في إتمام الحدث

من الشرب، وقد اجتمع البناء للمجهول، ودلالة الفعل

عليها في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا
سَّمَاءِ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ هود/٤٤. وذلك
لأن نهاية المشهد جاءت سريعة متلاحقة، وكأنها تمت في
لحظة واحدة، والبناء للمجهول يقصر العبارة بحيث تحكي
حال السرعة الظاهرة في المشهد؛ لأن البناء للمجهول يتم
بحذف كلمة هي الفاعل، مما يجعل العبارة قصيرة ... أقصر
من عبارة المبني للمعلوم، عندما تستخدم للمعنى نفسه
((الإعجاز اللغوي في قصص نوح (ع) في القرآن الكريم
ص ١٣٥) وقد جاء الفعل (ابلعي) بديلا من (اشربي) ؛ لأن
الشرب قد تفهمه الأرض أن تتجرعه قليلا حسب حاجتها
للماء، وهذا قد يستغرق عشرات السنين حتى تشرب ماء
الطوفان كله أما البلع فلا تفهم منه إلا الاستيعاب السريع
لماء الطوفان، ولا يستغرق إلا بضع ساعات أو بضعة أيام
(السابق ١٣٩ - ١٤٠).

وذكر الجار والمجرور وحذفه كحذف (على آثارهم) مرة
 وذكرها مرة أخرى قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
 وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِئْتُهُم
 مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ، ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم
 بِرِسَالِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا
 فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...﴾ الحديد/٢٦ — ٢٧.

وقال ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ
 مَرْيَمَ﴾ المائدة/٤٦. ذلك أن الزمن إذا كان قصيراً بين نبي
 وآخر يؤتى بـ (على آثارهم) لأن الآثار لما تمنح بعد،
 وإذا كان بعيداً يحذف (على آثارهم) لأن الآثار درست
 وزالت.

زه فاء السرعة:

ذهب أكثر النحاة إلى أن الفاء في الجملة تجعل ما
 بعدها يأتي عقب ما قبلها مباشرة، متصلاً به، ولا يفصله

عنه فاصل، قال المبرد : ((إنها توجب أن الثاني بعد الأول، وأن الأمر بينهما قريب (المقتضب ١/١٤٨) ورأى الزجاجي : (أن الفاء معناها أن الثاني بعد الأول بلا مهلة (الجمل في النحو / ١٧)، وأشار ابن جني إلى أنها تجعل الثاني عقيب الأول بلا مهلة (اللمع في العربية / ١٧٤).

وذكر الزمخشري : ((أن الفاء توجب وجود الثاني بعد الأول بغير مهلة (المفصل في علم العربية / ٣٠٤).

والظاهر أن النحاة استقوا آراءهم من سياقات الجملة التي تأتي فيها الفاء، ومن شدة ربطها بين الجمل، ومن دلالتها على الترتيب، وأن ما بعدها يحصل بعد ما قبلها،

ولم يشغل بشيء غيره، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا

الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ، وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ،

وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ ﴿ المدثر/١-٥.

ذلك أن سياق الآيات، وأسباب نزولها، كلها توجب

السرعة في الإنذار والتكبير، والتطهير وهجران الرجز، ومنه

مجيء الإحياء بعد الموت مباشرة، وبسرعة ؛ دليلا على قدرة

الله المطلقة في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ

أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ البقرة/ ٢٨ .

ومنها الفاء التي تأتي في استجابة، أو دعاء، أو استغفار، أو استغاثة، أو انجاز وعد، أو بعد أمر، أو هو أمر أو حصول رجاء سريع أو عقوبة سريعة، وقد سماها الدكتور أحمد الكبيسي (الفاء المباركة) وأسماها فاء السرعة، لأنها تشمل العقاب والثواب والإحسان وتحقيق المطلوب، وهي كثيرة في القرآن الكريم، وسأذكر شواهد منها:

١ — قال تعالى: ﴿ بِسْمَا آسْرًا وَأَبْأَسْرًا أَنْ

يَكْفُرُوا بِمَا آنَزَلَ اللَّهُ بُغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبِأُوْءَابِغْضٍ عَلَيَّ غَضَبٍ

وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ البقرة/ ٩٠ .

٢- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ
جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّهُمْ مِنْ آيَاتِنَا وَقَالُوا حَسْبُنَا
اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ مِنْ اللَّهِ وَقَضَىٰ لَهُمْ
يَمَسُّهُمْ سُوءٌ...﴾ آل عمران/١٧٣-١٧٤.

٣- قال تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ
هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ،
فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنْ
اللَّهُ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا
وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آل عمران/٣٨-٣٩.

٤- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا

الدُّنْيَا وَحُسْنِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ آل

عمران/١٤٧ - ١٤٨.

٥- قال تعالى: ﴿مَرَيْنَا وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ

وَلَا تَخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ،

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ... ﴿١٩٥﴾ آل عمران/١٩٤ - ١٩٥.

٦- قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ

الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا

بِهِ مِنَ ضُرِّهِ... ﴿٨٣﴾ الأنبياء/٨٣ - ٨٤.

٧- قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ

أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي

المؤمنين ﴿٨٧﴾ الأنبياء/٨٧ - ٨٨.

٢٩. (ومن الحب ما قتل):

قال تعالى: ﴿مَرَّتْنَا إِنْـيَ أُسْكِنَتْ مِن ذُرِّيَّتِي
بِوَادِ غَيْسِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي
إِلَيْهِمْ﴾ إبراهيم/٣٧.

خرَّج العلماء الآية على زيادة (إلى) أو على تضمين
(تهوي معنى (تميل) لسان العرب / مادة هوى ٣٧٤/١٥،
وأرى أن لا زيادة ولا تضمين، وأن الفعل (هوي يهوى)
معناه أحب، و(هوى يهوي) بمعنى سقط، وهو المقصود
هنا، وأن أفئدة الناس تسقط إليهم من شدة حبها لهم من
غير سيطرة أو إرادة كخروج المؤمنين إذا سمعوا الآيات أو
نبهوا عليها قال تعالى: ﴿إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ
خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ مريم/٥٨.

ولو كانت بمعنى (أحب) لما صورت شدة الحب التي
صورتها (هوى يهوي) بمعنى: سقط لا إراديا.

قال كثير عزة:

رُهْبَانُ مَدِينِ وَالَّذِينَ عَهْدُهُمْ

يَكُونُ مَنْ حَذَرَ الْعَذَابِ قُعُودًا

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهُمْ

خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكْعَا وَسُجُودًا

وقال آخر :

وإن خَرَجْتُ يُنَادِينِي بِلَهْجَتِهِ

(بَابَا) فَتَثْبُتُ مِنْ تِلْقَائِهَا الْقَدَمُ

وقال الشاعر الريفى :

رَفِرْتُ مِثْلَ الطَيْرِ رُوحِي عَلَى مَلَكَاك

لَا يَمِي وَأَفْرَحُ بِيكَ لَا أَكْدَرُ أَنْسَاكَ

٣٠. عسى للتحقيق :

(عسى) لفظ يفيد الرجاء، جاء في القرآن الكريم

ثلاثين مرة كلها مقرونة بـ (أن) والذي يرجو شيئاً

يتلهف إلى وقوعه بأسرع وقت، وهو متشوق إليه،

وراعب في تحقيقه، ومنذفع نحوه، يذكره صباح مساء ولا

ينساه أو يشغله شاغل عنه ... فكيف إذا كان المرجو منه

هو الذي بيده الأمر، والقادر على تنفيذه وإعطائه هو الذي يرجو من ذاته وقوع ما يتمناه صاحب الشأن؟ عندها تكون المسألة أكثر تحققا في الوقوع والقطع في الحدوث، و(نص غير واحد أن التعبير به للجري على سنن الكرماء)(روح المعاني ٣٠/٥). تقول — مثلا — لمن يطلب منك شيئا : سأعطيك ذلك . فقد تفي بوعدك أولا تفي، والمخاطب يترقب الإعطاء .. وتقول : عسى أن أعطيك ذلك، وتقصد بهذا أن تقول له : أنا الذي أريد إعطاءك — قبل أن تسألني إياه — وأنا الراغب في الإعطاء، فيكون الكلام — عندئذ — أكثر توكيدا، وهو أسلوب فيه نوع من التلطف بصاحب الحاجة، لأن المتكلم لا يريد أن يظهر عظمته أمام السائل، ليكون أكثر تأثيرا فيه لما في التعبير من تودد، ورحمة، وعطف ؛ لأنك أنت المعطي، وأنت الراغب في الإعطاء ولا شيء يمنعك من تحقيق الأمر وتنفيذه، وعلى هذا تقاس جميع الآيات المشتملة على (عسى) والمتكلم فيها هو (الله) سبحانه وتعالى كقوله : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفُ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ النساء/٨٤. وكل شيء فيه

(عسى) وصادر من الله فهو متحقق الوقوع، وقد نفى

فريق من العلماء هذا وقصره (روح المعاني ١/٥٠٢) على

قوله : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُدْلِكَ أَرْوَاجًا

خَيْرًا مِنْكَ...﴾ التحريم/٥. ولا نوافقه على ذلك

بناء على سياقات التعبير القرآني، وفاقا مع جمهور المفسرين

ويمكن أن نجد خمس مراتب أو منازل أو درجات للحدث

المتحقق بعد عسى، وسنرتبها من الأدنى إلى الأعلى:

أ- متحقق الوقوع إذا لم يسند إلى لفظ الجلالة نحو

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ

تَكُونَ هُمْ أَوْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ البقرة/٢١٦.

ب - يكون أعلى من هذه المثلة إذا جاءت قرينة تقرب

تحقيقه نحو (ردف لكم) في قوله تعالى : ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ

يَكُون رَدْفٌ لَّكُمْ بِبَعْضِ الَّذِي

تَسْتَعْجِلُونَ﴾ النمل/٧٢.

ج — يكون أعلى درجة تحقق من الثانية إذا أسند الفعل

(عسى) إلى لفظ الجلالة (الله) نحو ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ

يَكْفُ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ النساء/٨٤؛ لأن الله هو

القاهر والمانع، وهو الجبار، وهو الرحمن الرحيم.

د — يكون أعلى من الدرجة الثالثة إذا أسند الفعل إلى لفظ

(رب) كقوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُدْلِمَهُ

أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ...﴾ التحريم/٥؛ لأن الرب هو

المربي، وهو الموجه، وهو المعطي، وهو الرؤوف الرحيم بمن

رَبِّي، وهو اللطيف الخبير، هو الشافي، وهو مطعم المؤمن

والكافر، وهو القائل في الحديث القدسي: (لو خلقتهم

لرحمتهم).

ه — يكون أعلى من المرتبة السابقة إذا أسند إلى لفظ

(الرب) وقدم (أن والفعل) عليه نحو ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ

رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الإسراء/٧٩؛ لأن ربه هو المتكلم

الباعث، وقدّم (أن يبعث) حتى على نفسه (ربك) اهتماما به، وبتحقيقه له، وهو ما لم يحدث لغير النبي محمد (ص).

٣١. السمع مفرد:

سمع سمعا أدرك صوتا بجاسة الأذن، واستمع له وإليه : أصغى، وحاول إدراك ما يقال، واهتم به، وانتبه عليه، واستمع : مبالغة في السمع وفيها قلبت تاء (استمع) سينا لقربها في المخرج الصوتي، وألقى إليه السمع أمال رأسه إليه،

ليستمع جيدا قال تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ

كَانَ لَمْ يَلْمُ قَلْبُ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق/٣٧.

والسمع مصدر للفعل سمع، وهو نقل ذبذبات صوتية إلى الدماغ عن طريق عصب سمعي واحد، لكي يترجمها ويميز بعضها عن بعض.

وجاء مفردا ومقدما في القرآن في المواضع كلها، وجاءت الأبصار والأفئدة مجموعة، ومؤخرة عنه حيثما وردت في سياقه قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا

تَشْكُرُونَ ﴿ الملك/٢٣، وقال أيضا ﴿ وَهُوَ الَّذِي

أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿ المؤمنون/٧٨.

واختلف العلماء في تعليل إفراده فقال بعضهم؛ لأن السمع يتكون قبل البصر، وأن الطفل يسمع وهو في بطن أمه ولا يرى إلا بعد أربعين يوما من ولادته، أو لأنه يتصل بعصب سمعي واحد ينقل إلى الدماغ ولا يعيد كالعصب البصري ينقل ويعيد ليحصل الإبصار؛ أو لأن لفظ (الإسماع) مكروه صوتيا لما فيه شيء من صوت التهوع.

وجاء لفظ (السميع) صفة لله بكثرة كقوله تعالى:

(السميع العليم) و(السميع البصير) و(سميع قريب) وورد

صفة للإنسان بقلة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿ الإنسان/٢،

أما (السماع) فاستعمل وصفا للإنسان وفي ذمه فقط .

(من أسرار البيان القرآني ص ٣٣) قال تعالى ﴿ سَمَاعُونَ

لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴿ المائدة/٤٢.

ويقدم لفظ السميع على العليم؛ لأن السمع طريق
للتعلم، ويقدم على (البصير) أيضاً، لكن البصر قدم على
السمع في التعجب من صفات الله قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَمْ يُخَيِّبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ
وَأَسْمِعِ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَمْ يُشْرِكْ فِي

حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦؛ لأن البصير فيها تدبير

شؤون السماوات والأرض وما بينهما، والتدبير والخلق
أعظم صفة من السمع... ووردت على النسق العام في
تقديم السمع على البصر في التعجب من صفة الكفار قال

تعالى: ﴿أَسْمِعِ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ تَأْتُنَا

.....﴾ مريم/٣٨، إذ لا داعي إلى مخالفة الترتيب، وقدم

البصر على السمع في آية ثانية في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ لَتَكْسِرُ وُجُوهَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا
وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا

﴿مُوقِنُونَ﴾ السجدة/١٢، وذلك إشارة إلى التحول في

صفتهم يوم القيامة؛ لأنهم في الدنيا كانوا يسمعون ولا يبصرون (أي لا يفهمون) ولا يستطيعون تصور ما يسمعون، وفي الآخرة أبصروا ما كانوا لم يستطيعوا عليه في الدنيا، فقالوا: ((إنا موقنون))، فقدّم ما تيقنوا به، وهو الإبصار والإطلاع على الحقيقة التي هي عين اليقين.

وقيل إن أحدهم يقول للناس : ((استمعوا إلى أغاني (فيروز) في الصباح، ولا تستمعوا إلى (تلاوة القرآن) فقلت: لعل أبا جهل أو أحد أعوانه قد بعث حيا، أو إنه حفيد الذين كانوا يُحرّضون على مثل هذا، وكانون (يشوشون) عندما يقرأ الرسول (ص)، وذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَآ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ

وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ فصلت/٢٦.

وسأل أحد الصحابة رسول الله (ص) فقال : متى يوم القيامة يا رسول الله؟ فقال له الرسول (ص) وماذا أعددت لها؟ قال : ليس كثير صوم، ولا كثير صلاة، ولكنني أحبك.

قال الرسول (ص) : أنت مع من أحببت، فمن لا يريد سماع (تلاوة القرآن) هو مع من حرّض على عدم سماعها في الجاهلية، وهو في جهنم مع أبي جهل، وهو فيها من الخالدين.

٣٢- (سيماهم في وجوههم) الفتح / ٢٩:

الكلام في بداية الخليقة أصوات مختلفة النبرات، أصوات الفرح تختلف بنبراتها عن أصوات الحزن والخوف، والجوع، والعطش وهكذا، وتصحبها أحيانا إشارات باليد، والعين، والحاجب أو باصفرار الوجه، أو احمراره، أو رجفة الشفاه... هذا كله بين المتخاطبين الذين يرى بعضهم الآخر، واخترع الإنسان الصور لمخاطبة الناس في الأماكن البعيدة ثم تحولت الصور إلى رموز (حروف) اتفق كل شعب على مجموعة منها شكلا ودلالة، ووضعوا للدوات، والحوادث علامة صوتية تميز بعضها عن بعض، سميت فيما بعد بالأسماء، ولهذا عرّف الكوفيون الاسم بأنه سمة توضع على الشيء يعرف بها أي علامة توضع على المسمى، فهذه خشبة بشكل معين تسمى باباً، وأخرى تسمى شباكاً،

وثالثة كرسيا أو مائدة ووسموا الحيوانات لئلا تختلط بغيرها
كالإبل والبقر، والغنم ومن هنا جاءت لفظة (الوسام) الذي
يعطى للمتميز .. وفي الطرق، وضعوا علامات سموها
(صوى)، لئلا يضلوا في رحلاتهم وأسفارهم، ومنها سمي
الجبيل (علم) أي علامة، وسميت الراية كذلك (علما)؛
لأنها ترمز إلى (أمة، أو شعب، أو قبيلة).

ثم نظروا إلى السماء، ومواقع النجوم، وجعلوها
علامات أيضا يهتدون بها في سيرهم ليلا، قال تعالى:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ
وَأَنْهَارًا وَسَبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ

هُرْتَهْتَدُونَ﴾ النحل/ ١٥ - ١٦.

ورويت حكايات عن أسرى بعثوا برسائل شفوية إلى
أهلهم عن طريق الرموز، والإشارات إلى وديان أو جبال أو
مناطق معروفة لديهم ولذويهم؛ لكي تعرف قبائلهم أماكن
أسرهم، واحتجازهم.

وبالكتابات، والعلامات، والنقوش التي وجدت
اهتدى علماء الآثار، واللغويون إلى معرفة لغات الأقوام
السابقة، وحل رموزها وقراءتها.

وكان العرب كغيرهم من الأقوام يعرفون الشخص من أثر
أقدامه في التراب، وكان السراق يحاولون إخفاءها بجر
أقدامهم فوقها؛ لطمس معالمها لكن مقتفي الأثر رغم ذلك
يهتدون إليها، ويعرفونها ومنها قيل: (أخذ فلان بجريرته) أي
بأثر أقدامه، وما جرّ عليها وعلى هذا فالعلامات أنواع
صورية، وحرفية كتابية، وصوتية كلامية، وذاتية مجسمة
شكلية تشغل حيزا من الفراغ، أو حتى لونية، الأحمر يشير
إلى الخطر لون الدم، والأصفر إلى الخريف واصفرار
الأوراق، وقرب انقضاء عهد، وبداية آخر، والأخضر يعبر
عن الحياة، والسلامة، وهكذا هي إشارات المرور...

وعلماء الإجرام وضعوا أوصافا للمجرمين من خلال
اطلاعهم على أشكال عدد كبير منهم كضخامة الجثة،
وغور العينين، وشكل الأنف، وقديما قيل: ((اتقوا صُفْرَ
الوجوه من غيرِ علة))، وقد تصدق هذه الأوصاف أو لا

تصدق، لكنها جائزة الحصول، لأن المكروه في مواصفاته قد يحاول إثبات وجوده. ولفت الأنظار إليه عن طريق مخالفة قوانين المجتمع، وشرائع السماء.

وبمرور الزمن أصبحت العلامة علماً له أصوله، وقواعده وسمي (علم السيمياء)، واخترعت له آلات، وأدوات، ووضعت له مناهج ودراسات.

وجعل الإسلام قطع اليد علامة لمن سرق قال تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ المائدة/ ٣٨.

وُبَشِّرَ الْمُسْلِمُونَ بِضَرْبِ أَنْفِ أَحَدِ الْمُشْرِكِينَ، وجعله سمة له

في معركة بدر قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى

الْخُرْطُومِ﴾ القلم/ ١٦، وَحُكِمَ فِي قِضِيَةِ يُوسُفَ (ع)

بالاعتماد على علامة موضع شق القميص، قال تعالى:

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا

لَدَى الْبَابِ... قَالَ هِيَ رَأَتْ دُبُرِيَّ عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ

شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ

وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ
فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ
مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنْ
عَظِيمٌ﴾ يوسف/ ٢٥ - ٢٨. وظن بعض علماء العصر

الحديث أن علم (السيما) من إبداعاتهم، وفاقهم أن القرآن
قد سبقهم إليه قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ
لَأَرْيَاكُمْ فَلَعَنَ فَنَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَنَ فَنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد/ ٢٩ - ٣٠. وقال جل شأنه

: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى
الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ
السُّجُودِ﴾ الفتح/ ٢٩. وذكر الرسول محمد (ص) علامات

المنافق فقال: ((علامات المنافق ثلاث إذا حدث كذب،
وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)).

وبعض القبائل السودانية يضعون على وجوههم — نساء
ورجالا — خطين ثابتين أو أكثر يعرف انتسابهم لقبائلهم
من النظرة إليهم.

والفلكيون في العصر الحديث يبعثون سفنا فضائية إلى
الكواكب الأخرى يرسمون عليها صورتى رجل وامرأة،
ويضعون عليها علامات تشير إلى مركز انطلاقها عسى أن
يصادفها سكان في تلك الكواكب فيهتدوا إلى مرسلها قال
تعالى: ﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ
فِيهِنَّ مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ
قَدِيرٌ﴾ الشورى/ ٢٩.

٣٣. صناعة الإعلانات:

للإعلانات أجهزة تصورها، وخبراء يديرونها وهي
علم وذوق وفن، تحتاج إلى خيال واسع، وتعتمد على علم
النفس، والكلمة الموحية، والصورة المعبرة خيرا أو شرا

ويختار لها الوقت المناسب، والمقام الذي يثير العواطف
ويجلب الانتباه واللون المؤثر، والضوء المنسجم مع سياقات
الموقف، والموسيقى بأنواعها، ويتطلب دربة، وعلما بأحوال
الناس، ومشاربهم، وأذواقهم، وعاداتهم، وتقاليدهم ومعرفة
ما يحبون أو يكرهون، وما يثير الهمم ويحفز الشعور، وما
ترسخ في أذهانهم من عادات وتقاليد — زفضا أو قبولا —
وقد دأب صناع هذه الإعلانات وأربابها في وقتنا الحاضر
(٢٠١١م) وما قبله أن يتخلل الإعلان المواقف اللافتة
للانتباه، ويعرض وسط حلقة علمية تحبها الناس أو سلسلة
يتابعها كثر منهم أو فلم سينمائي يشاهده جمع غفير؛ لكي
يطلع على ذلك الإعلان أكبر عدد من المشاهدين، وقد
سبقهم القرآن إلى هذه الصناعة، فأوصاهم بالصلاة
والمحافظة عليها في مواضع كثيرة، وفي موضع جاء في وسط
سياق يتحدث فيه عن الطلاق والأرامل؛ لفتا للانتباه؛
(لأن الصلاة تهيء النفس لفواضل الملكات، لكونها الناهية
عن الفحشاء والمنكر... وإيدانا بأنها حقيقة بكمال الاعتناء،
والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأن أولئك، وكأنه

قيل لا يشغلنكم التعلق بالنساء وأحوالهن، ونوجهوا إلى
 مولاكم بالمحافظة على عماد الدين، ومعراج المؤمنين (روح
 المعاني ١/٥٤٨)؛ ولأنها تذكر الناس بخالقهم، وتحرك عمل
 الخير فيهم، وتثير النخوة والشهامة تذكر الناس بخالقهم،
 وتطهر النفس، فيقبل المؤمن على إعطاء المرأة حقها؛ ونظرا
 لأهميتها ذكرت عندما كانت الأنظار مشدودة إلى حقوق
 النساء، وحالات الأراامل؛ جلبا للانتباه كما يعمل صناع
 الإعلانات قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ
 النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ قَسَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَنِعُوهُنَّ
 عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرًا وَعَلَى الْمُقْتَسِرِ قَدَرًا مَنَاعًا
 بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ، وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا
 فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ
 وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنْ

اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ
 الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ، فَإِنْ خِفْتُمْ فِي جَآءِ أَوْ
 رِكْبَانَا فَإِذَا آَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ
 تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ
 أَرْوَاجًا وَصَيْتَةً لَّا زَوَاجِهِمْ مَنَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ
 فَإِنْ خَرَجْنَا فَلَآ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَا فِي أَنفُسِنَا
 مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَالْمُطَلَّقاتِ مَنَاعٌ
 بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَيْنِ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ البقرة / ٢٣٦ - ٢٤٢ .

٣٤ - حَامِيم:

قال الشاعر:

لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مُوَاطِنِي

فَأَسْقَيْتَنِي بِالْهَجْرِ فَاتِحَةَ الرَّعْدِ

أي (المر) لأنها تبدأ بهذه الأحرف المقطعة، وسواء سقاه أم لم يسقه ففي بداية قسم من السور القرآنية حروف مقطعة تكلم عليها المفسرون كثيرا، وذهبوا فيها مذاهب شتى منها:

١- إن علمها عند الله، ولا يعلمها إلا هو، وإنها من أسرار القرآن .

٢- إنها إشارة إلى أحقية حكم الإمام علي (ر) (روح المعاني ١/١٠٣).

٣- إنها إشارات إلى حوادث تاريخية، قيل : إن الإمام علي (ك) استخرج وقعة معاوية من (حم عسق) واستخرج أبو الحكم عبد السلام بن برجان فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ) (روح المعاني ١/١٠٥) من قوله

تعالى: ﴿أَلَمْ غَلَبْتِ الرُّومَ﴾ الروم ١-٢.

٤- إنها أسماء للسور، أو اختصار للجمل.

٥- إنها أدوات تنبيه لكي ينصت الناس لما يقوله

الرسول (ص).

٦- إنها إشارة إلى اسم الله الأعظم أو صفاته أو
آجال الناس.

٧- إن فيها تلميحا إلى عدد حروف العريضة،
ومخارجها الصوتية وهي خطاب للعرب بأن هذه الحروف
التي يتألف منها كلامكم جاء التعبير القرآني به ولم
تستطيعوا أن تأتوا من مثله.

٨- إنها إشارة إلى الحرف الذي يكثر في السورة
التي تبدأ بها.

٩- إنها إشارة إلى وحدانية الله؛ لأن مجموع هذه
الحروف في السورة التي هي فيها يقبل القسمة على (١٩).
وهذا العدد بحساب الحروف يساوي (واحد) والواحد هو
الله ((ألا ترى أن كل ما جاء في القرآن الكريم هو (قوم
لوط) مثل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ هود/٧٠.

ومثل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَعَادُ وَثَمُودُ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ الحج/٤٢-
٤٣. وغيرها وغيرها إلا في سورة (ق) التي تتكرر فيها

القافات والكلمات القافية لأنه لو قال: (قوم لوط) لزادت القافات حرفاً، ولأصبحت ثمانية وخمسين حرفاً، ولم تكن من مضاعفات التسعة عشر فأبدل (الإخوان) بـ (القوم) فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ

وَتَمُودُ، ﴿وَعَادُ وَعِيسُ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ ق ١٢ —

١٣. (والمعلومة أخذت من التعبير القرآني ص ١٣ — ١٤ نقلاً عن معجز القرآن الكريم ٦٧ — ٦٨.

وفي القرآن الكريم (٧) سور متتالية تبدأ بـ (حم) هي: (غافر ٨٥ آية، وفصلت ٥٤ آية، والشورى ٥٣، وفيها زيادة عسق بعد حاميم، والزخرف ٨٩، والدخان ٥٩، والجنات ٣٧، والأحقاف ٣٥) والسورة التي قبل هذه السور خالية من هذه الأحرف، وكذلك التي بعدها.

وقد حاولت أن أجد لها رابطاً يربطها أو يجمع بينها فقرأت المضمون، فوجدته يختلف، لكنه مضمون قرآني، تشريع، وعقاب وثواب، وجنة ونار، ورسول، ومؤمنون وكفار، ووعد ووعيد، وهكذا ومما يلفت النظر أن بدايات هذه السور السبع متشابهة كلها؛ إذ هي تتحدث عن تنزيل

القرآن، وأنه من العزيز الحكيم أو من العزيز العليم، أو
الرحمن الرحيم، وهذه هي:

١- غافر: ﴿حَمْدٌ تَزِيدُ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ﴾ غافر/١-٢.

٢- فصلت: ﴿حَمْدٌ تَزِيدُ مِنَ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ﴾ فصلت/١-٢. وفيها أيضا ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَزِيدُ مِنْ حَكِيمِ

حَمِيدٍ﴾ فصلت/٤٢.

٣- الشورى: ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ، كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ

وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ﴾ الشورى/١-٣، وفي هذه السورة (عسق).

٤- الزخرف: ﴿حمر، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا
جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أَمْرِ
الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الزخرف/١-٤.

٥- الدخان: ﴿حمر، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا
أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ
أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَمْ أَمِنَ مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ سُلَيْمٍ، رَحْمَةً
مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الدخان/١-٦.

٦- الجاثية: ﴿حمر، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ الجاثية/١-٢. وهذه السورة تنتهي بـ
﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجاثية/٣٧.

٧- الأحقاف: ﴿حمر، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ الجاثية/١-٢.

وفوق هذا أن لفظة (حميم) المشتمة على (الحاء والميم) وردت خمس مرات فيها صفة للصديق أو الماء الذي يشربون أو يصب عليهم عقوبة وتعنيفا، معنى هذا أن (حم) إشارة إلى الشيء البارز الذي يميز هذه السورة أو الشيء المتميز المشترك في عدة سور، وكأنه علم للسورة أو سمة لها أو علم وسمة لمجموعة من السور التي تشترك في شيء ظاهر وهو رمز، وتصنيف للسور التي تتحدث عن نزول القرآن في بدايتها كلها، وكأنها اختصار لبداية السور السبع السابقة، ودليل ذلك أن سورة الشورى ذكر فيها شيء مهم هو (قرب الساعة) ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ الشورى/١٧؛ لذلك جاء فيها (حم عسق) إشارة إلى ذلك، وقد يعني أن الله سبحانه أمر رسوله الكريم أن يُرتب القرآن في مجموعات، أو خزائن هي خزانة أو مجموعة (ألم) فيها مجموعة من السورة، وخزانة (المـ)، وخزانة (المص)، وخزانة (حم) هكذا، وعلى هذا فهو فرز وترتيب رباني للقرآن، كما يعمل اليوم في المكتبات العامة والخاصة.

ليت هذه الرؤية تعمم على جميع السور المبدوءة
بحروف مقطعة ويلاحظ القاسم المشترك بينها، والمتشابه
الذي تشير إليه الحروف المقطعة في بداياتها.

وهذا الرأي قريب من رأي قوم قالوا إن هذه
الحروف أسماء للسور ف (ألم) اسم لهذه، (حم) اسم
لغيرها، وهذا يؤثر عن جماعة من أهل العلم، وذلك أن
الأسماء وضعت للتمييز، فكذلك هذه الحروف في أوائل
السور موضوعة لتمييز تلك السور من غيرها، فإن قال
قائل، فقد رأينا (ألم) افتتح بها غير سورة فأين التمييز؟ قلنا:
قد يقع الوفاق بين اسمين لشخصين، ثم يميز ما يجيء بعد
ذلك من صفة ونعت، كما يقال: زيد وزيد ثم يميز بأن
يقال: زيد الفقيه وزيد العربي فكذلك إذا قرأ القارئ
﴿ألم، ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ البقرة/ ١-٢. فقد ميزها عن التي

أولها ﴿ألم، اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ آل عمران/ ١-٢.

انظر (الصاحبي، أحمد بن فارس ص ١٢٣) ولو قالوا اسم
لمجموعة من السور مشتركة في شيء ما لما أبعدوا، وصار
رأيهم مقبولا.

٣٥. أخطأ الزمخشري:

(سف أكتب، وسأكتب، وسوف أكتب) لهجات عربية معروفة يراد منها تخصيص المضارع بالاستقبال، والقرآن الكريم استعمل (السين، وسوف) فقط وأهمل (سف).

وقال البصريون : إن زمن الاستقبال بـ (سوف) أطول من (السين) بناء على قولهم : كثرة حروف الكلمة تؤدي إلى غزارة معناها، والزمن فيهما متساو عند آخرين بناء على كونهما لهجات وليس لهجة لقبيلة واحدة تداور بينهما تبعا لطول الزمن أو قصره.

وذهب الزمخشري منهم في الكشف إلى أن (السين وسوف) يفيدان التوكيد والاستقبال، وأخذ النحاة بعده هذا الرأي من غير تدبر أو تمحيص، ورووه خالف عن سالف...، وفاتهم أنهما يفيدان الاستقبال فقط، ولا يفيدان شيئا في التوكيد، ذلك أن المستقبل غيب بيد الله لا يُعرف، ولا يمكن توكيده أو القطع بوقوعه. والتوكيد الذي يلحظ في سياقهما آت من كون المتحدث صادقا وقادرا على تنفيذ

الحدث هو خالق أو نبي، والفعل مسند إلى ضميره كقوله
تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى،
فَسَنِيئَةٌ لِّلَّذِينَ سَرَى﴾ الليل/٥-٧، أو أن الله هو المتحدث
والفعل مسند إلى اسمه الظاهر نحو ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ
رَبُّكَ فَفَرَضَى﴾ الضحى/٥، أو من كون المتحدث نبيا
كقول يعقوب (ع) لأولاده: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ
لَكُمْ﴾ يوسف/٩٨، وروى عن ابن عباس (ع) آخر
الاستغفار وقيل إلى الليالي البيض، وقيل حتى يسأل يوسف
(ع) فإن عفا عنهم استغفر لهم، وقيل ليعلم حالهم في صدق
التوبة، وقيل أراد الاستمرار على الاستغفار؛ لأن (السين
والسوف) يدلان عليه وقيل إنه استمر بالدعاء لهم عشرين
سنة، وتيب عليهم بعد ذلك (روح المعاني ٧/٥٣-٥٤).
وقيل لأن جرحه منهم عميق، وألمه شديد فلم ينسَ بسرعة
ما فعلوه بيوسف (ع).

٣٦. العدد في القرآن الكريم

يُخِيلُ لِي أَنْ الْعَرَبِيَّ كَانَ يَعِدُّ بِأَشْيَاءٍ كَالْخُرْزِ وَالْحِجَارَةِ الصَّغِيرَةِ، وَالْحِصْيِ جَمْعًا وَطَرْحًا وَتَقْسِيمًا . فَالَّذِي يُخْرِجُ مِنْهُ صَوْتٌ عِنْدَ إِقَاءِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ مِثْلَ صَوْتِ (إِدْ، أَوْ عِدْ) يُقَالُ فِيهِ الْعَدُّ، وَالْعَدَدُ، وَعَدَّدَ . وَهَكَذَا، وَمَا يُخْرِجُ مِنْهُ صَوْتٌ (حِصٌّ أَوْ إِصٌّ)، كَالْحِصْيِ يُقَالُ فِيهِ (حِصْيٌ، وَأَحْصَى وَإِحْصَاءٌ) وَهَذَا هُوَ الْمَنْهَلُ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ (الْعَدُّ، وَالْإِحْصَاءُ، وَهَذَا عَيْنُهُ كَمَا نَعْمَلُهُ فِي تَعْلِيمِ الْحِسَابِ وَالْعَدِّ فِي الْمَرَحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ (نَوَى أَوْ حَصِيَّاتٍ) نَتَعَلَّمُ بِهَا (الْعَمَلِيَّاتِ الرَّيَاضِيَّةِ) .. وَاسْتَعْمَلَتِ اللَّفْظَتَانِ ، وَمَا اشْتَقَّ مِنْهُمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ((عَدَدًا، وَالْعَادِينَ وَ (تَعْدُونَ وَ مَعْدُودَةٌ، وَعَدَّةٌ وَمَعْدُودَاتٌ) وَكَذَلِكَ (أَحْصَى وَيَحْصِي) وَقَدْ يَرْدَانُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِذَا اجْتَمَعَا قَدِمَ الْإِحْصَاءُ عَلَى الْعَدِّ كَقَوْلِهِ ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ مريم/٩٤ و ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ الجن/٢٨ فِقِيلُ : ((إِنْ الْإِحْصَاءُ هُوَ الْحَصْرُ، وَالْإِحْطَاءُ، وَإِنَّ الْعَدَّ هُوَ عَدُّ الْأَشْخَاصِ، وَالْأَنْفَاسِ

والأفعال))^(١) . وقيل، العد هو قولك : واحد، اثنان،
ثلاثة.. والإحصاء هو بيان خصائص كل فرد من المسميات
المعدودة... فأحصاهم معناه عرف صفاتهم وأحوالهم
وميوهم وكل صغيرة وكبيرة عنهم ثم عدهم، وعليه يكون
تقديم (أحصى .. في الآيتين تقديمًا معنويًا، ومجانسة
للفواصل القرآنية أي معنى وصوتا ... والعدد في اللغة
يخالف المعدود مرة نحو (ثلاثة أقلام) ويطابقه نحو (اثنان
واثنتان) وقد يخالف جزء منه ويطابق آخر نحو : ثلاثة عشر
ولدا أو يلزم حالة واحدة نحو (عشرون ومائة، وألف)،
واختلف اللغويون في علة مخالفته لمعدوده، لكن علة التفاؤل
أراها أقرب إلى الواقع لأنها ترتبط بمفهوم اجتماعي، فالعرب
تسمي الصحراء مفازة تفاؤلا لمن يقطعها بالفوز والسلامة،
وتسمي القافلة للإبل الراحلة تيمنا، وتسمي البنت (فاطمة)
أملا بأن تعيش وتكبر وتتزوج، وتلد ثم تطفم وليدها..
وعليه فعندما يذكرون عددا مذكرا (ثلاثا) مثلا يتفاءلون
بأن يكبروا ويقترنوا بإناث، وعندما يذكرون عددا مؤنثا
يتفاءلون مثل ذلك ويتمنون اقترانهم بذكور، وهكذا أصبح

العدد المؤنث يتبعه معدود مذكر نحو (ثلاثة أولاد) والعدد
المذكر يقرن به معدود مؤنث نحو (ثلاث بنات) والله أعلم

والعدد في القرآن موضوع متشعب كُتب فيه الكثير
لكنني سأتناول شيئاً من مُلحه، شيئاً من الكلمات التي
يكون مجموع تكرارها فيه يقبل القسمة على العدد (١٩)
والتقابل العددي بين مجيء قسم من الألفاظ كالجنة والنار،
والعدد وتمييزه، والسنين التي أمضاها أهل الكهف في نومهم
والإفراد والتثنية، والجمع في بعض الأسماء، والضمائر؛ لأنها
ألفاظ تدل على العدد أو تشير إليه، وهذه — كغيرها —
من ألفاظ القرآن مقصودة كلها، ومحسوبة بحسبان دقيق،
بعضها يشير إلى الوجدانية، وبعضها إلى أمور فلكية وبعضها
زخرفة لفظية تتعلق بالتساوي والتوازن، وبعضها له لمسات
نفسية تحتاج إلى تأمل وتدبر لاستخراج معانيها، وكلها
آيات على أن القرآن كلام الله تعالى، وفوق طاقة كل بشر.
ف (الرحمن) تكرر (٥٧) مرة أي 3×9 و(الرحيم) تكرر
(١١٤) أي 6×19 والله تكرر ٢٦٩٨ مرة أي 142×19

والآية / ٣٠ من سورة المدثر ذُكر فيها العدد (١٩) في قوله تعالى (عليها تسعة عشر) والآية (٣١) من السورة نفسها طويلة بالقياس إلى آيات السورة الأخرى، وعدد كلماتها (٥٧) وهو يقبل القسمة على (١٩). وأرجح أن العدد (١٩) يقابل (واحد) في حساب الحروف الواو = ٦، والألف = ١، والحاء = ٨، والذال = ٤، وبجمعها $٦ + ١ + ٨ + ٤ = ١٩$ وهذه إشارة إلى الوجدانية، ووجدانية الخالق، وهي مفتاح الجنان، فوجدانيته سبحانه جاءت صراحة، وجاءت ضمنا في هذا التكرار العددي، وقد تكون في غيرهما .. من يدري؟. والعدد (١٩) بداية الآحاد ونهايتها، فإذا بدأنا بتسعة منه نزولا واحدا واحدا لوصلنا إلى الواحد، وإذا صعدنا واحدا واحدا لوصلنا إلى العدد التاسع وهذا يشير إلى الوجدانية أيضا إلى قوله تعالى : {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} الحديد/٣... ووردت كلمة سنة (٧) مرات، ووجد أن كل (١٩) سنة فيها (١٢) سنة بسيطة و(٧) سنوات كبيسة، ومجموعها (١٩) وهذا يشير إلى أن مهندس الزمن وخالقه هو الواحد كتابة، والذي

يساوي (١٩) رقما. والوحدانية يشير إليها القرآن الكريم في أساليب متعددة منها ما تقدم ومنها أن القرآن الكريم حيثما استعمل ضمير الجمع للتعظيم فإنه يستعمل بعده ضمير الإفراد تذكيرا بوحدانية الله وإفراده كقوله تعالى {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} (١) بالجمع ثم التفت إلى المفرد فقال {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ} (٢) الايتان ١، ٢ من سورة الكوثر .. ومثله في سورة القدر {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} بالجمع ثم قال {تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم} الآيتان ١-٤ من سورة القدر، فوحد الرب كذلك ... ومنه أن القرآن فضّل كلمة (أحد على (واحد) في قوله تعالى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} الإخلاص/ ١ لأن أحد في اللغات السامية أصل للواحد بالواو، ولأن الله سبحانه هو الأول وهو موجد الأشياء وكلها ترجع إليه ؛ إضافة إلى أنها أعم واشمل من لفظة (واحد) لذلك يقال : ما جاني من أحد، ولا يقال ما جاءني من واحد، والعموم والشمول أليق بقدرة الله من غيرها، ولأنها ملائمة للسجدة في السورة أكثر من (واحد) ولكن القس زكريا بطرس لم يفهم هذا، ورأى

أن (أحد) تشير إلى الإضافة إلى مضاف إليه محذوف وقدره؛
 أحد ثلاثة) أي (الله)، وعيسى، ومريم) فوقع في الكفر
 والشرك لعنه الله. وربما كان العدد (١٩) مفتاحا لحسن
 التخلص للانتقال من موضوع إلى آخر، فعدد الحروف من
 بداية سورة المدثر حتى نهاية لفظة (عليها) أي قبل قوله
 تعالى { تِسْعَةَ عَشَرَ } هو (٣٦٥) حرفا أي بعدد أيام
 السنة (٢) والأيام من المباحث الفلكية ؛ لذلك ساغ
 الانتقال من الحديث عن جهنم إلى الحديث عن أمور فلكية
 بعد هذه الآية بقوله تعالى { كَلَّا وَالْقَمَرَ، وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ،
 وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ } المدثر/ ٣٢ - ٣٤. وفي القرآن زخارف
 بمقابلات عددية، فتكررت لفظة يوم مفردة (٣٦٥) مرة
 بعدد أيام السنة، وتكررت لفظة الأيام (٣٠) مرة بعدد أيام
 الشهر وتكرر لفظة شهر ١٢ مرة بعدد شهور السنة (٣) .
 وتكررت لفظة إمام ١٢ مرة بعدد الأئمة عند الشيعة
 الإمامية، وتكرر لفظة (كسا) ومشتقاته خمس مرات بعدد
 أصحاب الكساء وهم ((محمد

وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين) عليهم أفضل الصلاة والسلام (٤). ومن ذلك :

كلمة الدنيا تكررت	١١٥ مرة	كلمة الآخرة تكررت	١١٥ مرة
الشياطين	٨٨ مرة	الملائكة	٨٨ مرة
الليل	٨٨ مرة	النهار	٨٨ مرة
الضيق ومشتقاته	١٣ مرة	الطمأنينة ومشتقاته	١٣ مرة
الصيف والحر	٥ مرة	الشتاء والبرد	٥ مرة
الشدة	١٠٢ مرة	الصبر	١٠٢ مرة
الفقر ومشتقاته	١٣ مرة	القرض ومشتقاته	١٣ مرة
الغلظة ومشتقاته	١٣ مرة	والرأفة ومشتقاته	١٣ مرة
الناس ومشتقاته	٣٦٨ مرة	الرسول ومشتقاته	٣٦٨ مرة
السحر	٦٠ مرة	الفتنة	٦٠ مرة
رسالة الله	١٠ مرة	سور القرآن	١٠ مرة
النفع	٥٠ مرة	الفساد	٥٠ مرة
الكافرون ومشتقاته	١٥٤ مرة	النار ومشتقاته	١٥٤ مرة
العقاب	٢٦ مرة	الجحيم	٢٦ مرة
الصلاة	٦٨ مرة	النجاة	٦٨ مرة
البعث ومشتقاته	٤٥ مرة	الصراط ومشتقاته	٤٥ مرة
محمد	٤ مرة	السراج	٤ مرة

الحبة	٨٣ مرة	الطاعة	٨٣ مرة
الذهب	٨ مرة	الترف	٨ مرة
الرحمة	٧٩ مرة	الهدى	٧٩ مرة
البر ومشتقاته	٢٠ مرة	الثواب ومشتقاته	٢٠ مرة
اللجنة ومشتقاتها	٤١ مرة	الكراهية ومشتقاتها	٤١ مرة
الحرب ومشتقاته	٦ مرة	الأسرى ومشتقاتها	٦ مرة
السلام ومشتقاته	٥٠ مرة	الطيبات ومشتقاتها	٥٠ مرة
العقل ومشتقاته	٤٩ مرة	النور ومشتقاته	٤٩ مرة
اللسان ومشتقاته	٢٥ مرة	الموعظة ومشتقاتها	٢٥ مرة
الزكاة	٣٢ مرة	البركات	٣٢ مرة
الدين ومشتقاته	٩٢ مرة	المساجد ومشتقاته	٩٢ مرة
الإخلاص	٣١ مرة	الطهر	٣١ مرة
الرجس (العمل الخبيث)	١٠ مرة	الرجس (العذاب الأليم)	١٠ مرة
الخمر	٥ مرة	الختزير	٥ مرة
الجبر	١٠ مرة	القهر	١٠ مرة
الغرور	٢٧ مرة	العجب	٢٧ مرة
الحج	١٣ مرة	الركوع	١٣ مرة
الأنفاق	٧٣ مرة	الرضى	٧٣ مرة
البخل	١٢ مرة	الطمع	١٢ مرة
المصيبة	٧٥ مرة	الشكر	٧٥ مرة

وللقرآن طرائق عدة في ذكره للأعداد فمرة يذكره
نصا كقوله تعالى { بَل لَّيْسَتْ مِئَّةَ عَامٍ } البقرة/٢٥٩ وأحيانا
يذكر عددا تقريبا { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ } الصافات/١٤٧ ليشير إلى كيفية كونهم في عين
المشاهد .. وأحيانا يذكر رقما وينقص منه كقوله { فَلَبِثَ
فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا } العنكبوت/١٤ أو يذكر
رقما ويزيد عليه { وَكَلَبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ
وَأَزْدَادُوا تِسْعًا } الكهف/٢٥ محققا في ذلك دقة في العد
وأهدافا معنوية أو علمية، فالعدد في قصة نوح (ع)
((للدلالة على كمال العدد، وكونه متعينا نصا دون تجوز
فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ؛ ولما في
ذكر الألف من تخيل طول المدة ؛ لأنها أول ما تفرع
السمع، فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله (ص)
وتثبته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من
الكفرة)) (٦). وما جاء في أهل الكهف محققا دقة في العدد،
ومشيرا إلى الفرق بين السنوات الشمسية والسنوات

القمرية، وهو فرق يساوي (أحد عشر) يوما، ويساوي
 (تسع سنوات) على مدى ثلاثمائة سنة والمعادلة هي
 $9,2 = 365 \div 11 \times 300$ ولو عددت الألفاظ من بداية قصة
 أهل الكهف إلى نهاية ((وَأَزْدَادُوا تِسْعًا)) لوجدتها ثلاثمائة
 وتسعة ألفاظ .. ومن طرائقه في العدد. أن يذكر العدد مفرقا
 ثم يجمعه كقوله تعالى {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
 وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} الأعراف ١٤٢ /
 ومن طرائقه أن يقسم العدد على موضعين وزمنين رأفة
 بالعباد ثم يجمعه ليفهم مفصلا ومجموعا كقوله {فَمَنْ تَمَتَّعَ
 بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
 فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ
 كَامِلَةٌ} البقرة/١٩٦ ففرق سبحانه العدد عشرة على (ثلاثة
 وسبعة) فضلا عن تفريق الزمان والمكان، إذ جعل السبعة في
 بلاد الحجاج تيسيرا عليه، لأن الصوم في الحج مشقة وتأخر
 عن الركب ... وأحيانا لا يذكر رقما بعينه وإنما يذكر
 حادثة تدل على رقم أو تاريخ كحادثة الفيل، أو يذكر
 كلمة تتضمن عدة أرقام محتملة كـ (بضع، وثلة وعصبة،

ومعدودة، ومعدودات ... وأحيانا لا يذكر عددا وإنما يضع
السورة في مكان وآية من آياتها في مكان منها ليشير إلى
قضية عليمه فالوزن الذري للحديد هو (٥٧) ورقم سورة
الحديد (٥٧) والعدد الذري للحديد (٢٦) وآية الحديد
رقمها في السورة هو (٢٦). ويأتي العدد في القرآن أيضا
على وزن فاعل، ويراد به أحد أمرين : أحدهما أن يراد به
واحد من ذلك العدد، ويضاف إلى ما بعده، ويقاربه في
اللفظ كقوله تعالى : {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} التوبة/٤٠، وهذا
القسم لا يجوز إطلاقه في حق الله، لذا قال تعالى : {لَقَدْ
كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} المائدة/٧٣، والثاني أن
يكون بمعنى التصيير ويضاف إلى عدد أنقص منه، وغير
موافق له في اللفظ نحو ((ثالث اثنين أي جاعل الاثنين ثلاثة
(البرهان / ٤/ ١٣٧ - ١٣٨) كقوله تعالى : { مَا يَكُونُ
مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
سَادِسُهُمْ} المجادلة/٧ أي يصيرهم بعلمه، وإحاطته بأربعة،
خمسة، ولم يقل سبحانه ((ما يكون من نجوى واحد إلا هو

ثانيه، ولا اثنين إلا هو ثالثهم، لئلا يتمسك به أهل (الثالث والثوية) لكنه أشار إلى هذين المعين بقوله { وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } المجادلة/٧. وقد يأتي العدد في القرآن معدولا عن المؤلف في الأعداد كقوله تعالى: { فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } النساء/٣ وذلك لعدة أسباب:

أ— لإزالة الاحتمال بالزواج من هذه الأعداد مجموعة كلها أو بعضها أي: لهم أن يتزوجوا اثنين أو ثلاثا أو أربعا، فإن لم يعدلوا فواحدة، ولا يجوز للرجل أن يتزوج خمسا ٣+٢، أو أن يتزوج سبعا ٤+٣، أو أن يتزوج تسعا ٤+٣+٢، وذلك لأن العدد المعدول لا يجمع فلا تقول مثنى + ثلاث = كذا، وإنما تجمع الأعداد غير المعدولة، فتقول مثلا اثنين + ثلاث = كذا وقد غابت هذه الدقة عن بعض المشرعين فأجازوا الزواج بأكثر من أربع حتى أوصلها بعضهم إلى ثماني عشرة (٧)

ب — إن العدد المعدول يدل على العدد وتوكيده أو على العدد ووصفه الذي يفيد التوكيد أيضا، أو على العدد والحال التي يقع فيها ويشير إلى أن يكون الجواز فيه يقع بأضيق الحدود، ووفق شروط التعدد

ج — إن مثنى يدل على اثنتين اثنتين، وثلاث يدل على ثلاث ثلاث ثلاث، ورباع يدل على أربع أربع، فلو قلت : جاء القوم مثنى لدل على مجيء مرتب اثنين اثنين، وهذا ترتيب وتساوي وتنظيم وعدم تمايز لهذا عدل القرآن الكريم إلى استخدامه ليومئ إلى وجوب العدالة بين الزوجات، فضلا على قوله { فَإِنْ حِفْتُمْ إِلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً } النساء/ ٣ معنى هذا أن الله تعالى أشار إلى وجوه العدالة بين الزوجات صراحة وإيماء

د — إن العدول عن تسمية الألفاظ بأسمائها إلى الكناية عنها قد يشير إلى الإقلال منها لعدم محبوبيتها على الرغم من جوازها، وعلى هذا فالزواج من واحدة مفضل على الزواج المتعدد، ولو سألت متزوجا باثنين أو أكثر لسمعت حكايات كثيرة عن مشاكله...

وقد يخالف القرآن في ترتيب الأعداد المعدولة فيبدأ بالأعلى فالأدنى كقوله تعالى {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قُرْآنٍ} ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا {سبأ/٤٦} تنبيها على صلاة الجماعة وتفضيلا لها وحثا على إقامتها لما فيها من منافع كثيرة. وجموع التكسير ألفاظ تشير إلى مجموعات عددية، قليلة أو كثيرة غير معروف رقمها، واستعملها القرآن الكريم استعمالا دقيقا، فالقلة في مواضعها، والكثرة في المواضع التي تتطلب الكثير، سواء كانت تميزا للعدد أو غير تمييز، فاستعمل (أنعم) للقلة في قوله تعالى {شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ} {النحل/١٢١} واستعمل (نعم) للكثرة في قوله : {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} لقمان/٢٠ لأن السياق الأول ملائم لمعنى القلة ؛ إذ يتحدث عن شخص واحد هو إبراهيم (عليه السلام)، ولأن السياق في الثانية خطاب عام للبشر كافة، فجاءت (نعم) الدالة على الكثرة ملائمة لذلك، واستعمل (آلاف) للقلة مع العددين (ثلاثة، و(خمسة) في قوله: {أَنْ يُمِدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ} آل عمران/١٢٤} و {يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ} آل

عمران/١٢٥؛ لأن وزن القلة ملائم للأعداد التي هي دون
 العشرة واستعمل (ألوف) في السياق الدال على الكثرة
 كقوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ
 حَذَرَ الْمَوْتِ } البقرة/٢٤٣، فجاء جمع الكثرة ملائماً لكثرة
 الناس الذين خرجوا من ديارهم، وهكذا في (أبجر وبحار) في
 قوله { يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ } لقمان/٢٧ وقوله
 { وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ } التكوير/٦؛ لأن بحار الدنيا تسجر
 جميعاً، وهي أكثر من سبعة، والماء يشكل ٧٠% من اليابسة
 فجاءت لفظة (بحار) ملائمة، وكذلك الشأن في (فتية)،
 (فتيان) إذ جاءت الأولى فتية) للقلة في الحديث عن أهل
 الكهف في قوله تعالى: { إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ }
 الكهف/١٠؛ لأن عددهم لم يتجاوز السبعة { سَبْعَةٌ
 وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ } الكهف/٢٢ وجاءت الثانية (فتيان) للكثرة
 في قوله تعالى { وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ }
 يوسف/٦٢ في سياق الحديث عن حاشية يوسف (ع)
 وجنده ومأمورية (٨) لكن جمع الكثرة قد يقع تمييزاً لعدد
 قليل لأغراض بلاغية نفسية كقوله تعالى: { وَالْمُطَلَّقَاتُ

يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ {البقرة/ ٢٢٨} فلم يقل (ثلاثة
أقراء) على جمع القلة، وهو المناسب للعدد ثلاثة ؛ لان
العرب يتوسعون فيستعملون كل واحد من البنائين مكان
الآخر؛ لأن المراد بالمطلقات ها هنا جميع المطلقات ذوات
الإقراء وجميعهن متجاوز العشرة إلى الآلاف فهي إذن —
قروء — لا إقراء ؛ وعليه جاء جمع الكثرة إضافة إلى أن
لكل واحدة منهن ثلاثة أقراء ؛ فيحصل في الإقراء الكثرة ؛
فحسن أن يستعمل جمع الكثرة في تمييز الثلاثة تنبيها على
ذلك كما استعمل (أنفس) مكان نفوس في الآية ذاتها؛
للإشارة إلى أن الطلاق ينبغي أن يقع على القلة، وفي أضيق
الحدود، والحالات ؛ لأنه أبغض الحلال عند الله، والأرجح
عندي أن القرآن الكريم قد أشار بكلمة (قروء) جمع الكثرة
إلى الحالة النفسية المتعبة التي تكون عليها المتربصة، والمهموم
يطول وقته النفسي، وتمتد ساعاته حتى كأنها تتجاوز الزمن
المتعارف عليه أربعا وعشرين ساعة، فجاءت (قروء) تعبيرا
عن طول الوقت النفسي الذي تعانیه المنتظرة المتربصة، على

الرغم من قصره بحساب الزمن (٩٠) يوماً، ولهذا أشار
الشعراء إلى طول وقتهم عند معاناتهم فقال امرؤ القيس:
وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْحَى سُدُولَهُ
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

وقال النابغة:

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ
وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النَّجْمَ بِأَبٍ

وقال المتنبي:

لِيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكْرٌ
طَوَالَ وَكَلِيلُ العَاشِقِينَ طَوِيلٌ

والضمائر وحدات عددية تشير إلى الأفراد، والتثنية،
والجمع، واستعملها القرآن الكريم بحسب قواعدها في كلام
العرب، لكنه قد يعدل عن تلك القواعد لأسباب مقصودة،
فنية، بلاغية، إعجازية، فمن ذلك قوله تعالى: {يَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرِضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرِضُوهُ إِنْ كَانُوا
مُؤْمِنِينَ} التوبة/٦٢ فوحد الضمير في (يرضوه) ولم يشن
مراعاة لما قبله ؛ لأن إرضاء الرسول (ص) لا ينفك من

إرضاء الله (٩) فلتلازمهما وحّد الضمير، أو لأن الله لا يثنى معه تأديبا، أو الضمير للرسول وإرضائه ؛ لأن الكلام في إيدائه، فيكون ذكر الله تعظيما له (١٠) ومن ذلك أنه يخبر عن الاثنين بالمفرد أحيانا كقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً } المؤمنين/٥٠، فوحّد الآية والمتحدث عنهما اثنان؛ لأن الابن والأم معا يشكلان الآية، وليس كل واحد منهما على انفراد (١١)

قال شوقي :

ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ

هما الواهي الذي تكيل الشباب

فالدم واللحم يكونان الواهي، وهو قلب الشاعر ؛

لذلك وحّد الخير، والمبتدأ مثنى.

وللقرآن الكريم استعمالات دقيقة جدا في (الإفراد

والجمع) فقد يعدل إلى الإفراد في مقام الجمع، أو يعدل إلى

الجمع في مورد الإفراد، وقد يستعمل اللفظ مفردا في مكان

الجمع مرة، لكنه هو نفسه قد يجمعه في سياق آخر، وكل

تعبير لما يتطلبه السياق، وبلاغة الكلام، فمن ذلك أنه يفرد

في مقام التعذيب، ويجمع عند إرادة التكريم كقوله تعالى :
 {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ
 جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ
 وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا
 {الإسراء/ ١٨- ١٩، فأفراد مع أصحاب جهنم، وجمع
 ((أولئك، و (سعيهم) مع أصحاب النعيم، لأن الوحدة في
 سجن انفرادي عذاب نفسي فوق ما يلقاه من عذاب
 الحريق و (خالدا فيها) جاءت مفردة ومجموعة عند الحديث
 عن أهل النار وجاءت مجموعة فقط (خالدين فيها) عند
 الحديث عن أهل الجنة، فإذا كانت العقوبة شديدة سجن
 في النار في سجن إنفرادي ((زنزانه)، (خالدا فيها)، وإذا
 كانت العقوبة أقل من ذلك سجن مع الآخرين في
 (ردهات) (خالدين فيها)؛ لأن الإنسان اجتماعي بطبيعته،
 والإفراد يجرمه من هذه السجية، ويخرجه عن طبعه، وعمّا
 نشأ عليه، وألفه .. ويفرد كذلك عند اتحاد الهدف والغاية
 (١٢) نحو: {إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا
 مُّبِينًا} النساء/ ١٠١ وحد العدو، ولم يقل أعداء ؛ لاتحاد

مشاربهم وهدفهم وغايتهم، وقد يجمع عند إرادة الكثرة، ويفرد عند إرادة القلة في الآية الواحدة، فجمع (الشافعين) لكثرتهم، وأفرد (صديق) لقلة من يتصفون بهذه الصفة في قوله تعالى : {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، } وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ { الشعراء/ ١٠٠ - ١٠١ وقد يكون الأفراد طلبا للرخفة، والحسن، ولذلك أفرد السمع؛ لأنه خفيف، وعزف عن الأسماع ؛ لثقله، وكرهية جرسه في قوله تعالى : {وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } النحل/ ٧٨ ... وكلمة (طفل) وردت مفردة وجمعا، أفردت في الطفولة المبكرة للتشابه في الأفكار، والمرادات وحتى الشكل، وجمعت عند التقدم في العمر، لاختلاف الأفكار، والأحاسيس، والمشاعر والأشكال فجاء الأفراد في الطفولة المبكرة في قوله تعالى : {أَوِ الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } النور/ ٣١، ولما تقدم العمر بهم، وتنوعت الأهواء، وتباينت الأشكال والهيكل والسمات جاء الجمع في قوله تعالى : {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا } النور/ ٥٩

هذه مجموعة من ملح الأعداد، والضمائر، والمفرد والجمع وهي (ألفاظ عديدة أوردتها إظهاراً لإعجاز القرآن، وزخارفه وبلاغته، وتأكيد كونه كلام رب، وأنه فوق طاقة البشر، لا يمكن أن يقوم بشيء منه أي إنسان ؛ وردا على الملاحظة أمثال القس زكريا بطرس الذي يتهجم على الإسلام وكتابه في قناة الحياة الفضائية .. والحمد لله رب العالمين.

-
- (١) روح المعاني، الألوسي محمود: ٤٥٧/٨.
 - (٢) السابق: ص: ٧٠، وإعجاز الرقم ١٩ في القرآن الكريم، بسام نهاد ص: ٥٢-٥٥.
 - (٣) الإعجاز العددي في القرآن، د. لبيب بيضون ص: ١٩٤.
 - (٤) السابق ص: ١٩٤.
 - (٥) الإعجاز العددي في القرآن، د. سمير عبد الكريم، د. محمد راتب.
 - (٦) روح المعاني ٣٤٨/١٠.
 - (٧) روح المعاني: ٤٠٢-٤٠١/٢.
 - (٨) دراسات لغوية في القرآن الكريم، وقراءاته، أحمد مختار ص: ٢٠٥-٢٠٦.
 - (٩) روح المعاني ٣١٧/٥.
 - (١٠) السابق: ٣١٨/٥.
 - (١١) السابق: ٢٣٨/٩-٢٣٩.
 - (١٢) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، د. محمد الأمين الخضري ص: ٤٤.

المصادر والمراجع

◆ القرآن الكريم

١. الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، د. محمد الامين الخضري، القاهرة ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٢. الإعجاز العددي في القرآن، د. لبيب بيضون، لبنان ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
٣. الإعجاز اللغوي في قصص نوح (ع) في القرآن الكريم، د. عودة الله منيع القيسي، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٤. وإعجاز الرقم ١٩ في القرآن الكريم، بسام نهاد، لبنان ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
٥. الإعراب القرآني المنسوب للزجاج، القسم الأول، مصر.
٦. البحر المحيط، أبو حيان التوحيدي، بيروت ٢٠٠١م.
٧. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي، لبنان ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٨. العبير القرآني، د. فاضل السامرائي، بغداد ١٩٨٧.
٩. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، مصر.
١٠. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري، القاهرة.
١١. الجمان في تشبيهات القرآن، ابن نايقا البغدادي، تحقيق مصطفى الصاوي.
١٢. الجمل في النحو، أبو القاسم الزجاجي.
١٣. الحيوان، أبو عثمان بن بحر الجاحظ، مصر.
١٤. دراسات لغوية في القرآن الكريم، وقراءاته، أحمد مختار عمر، القاهرة ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
١٥. روح المعاني، الالوسي محمود، لبنان ط٢، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٦. السبعة في القراءات، ابن مجاهد أحمد بن موسى، القاهرة/١٩٧٢.
١٧. لسان العرب / ابن منظور، لبنان.
١٨. لطائف قرآنية، د. صلاح عبد الفتاح، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١٩. اللمع في العربية، عثمان بن جني، العراق.
٢٠. معاني القرآن للأخفش، تحقيق/هدى محمود قراعة، القاهرة، ط١، ١٩٩٠.
٢١. معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي جلال الدين، القاهرة.
٢٢. معجم الأدباء، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، القاهرة.
٢٣. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان.
٢٤. المفصل في علم العربية، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري.
٢٥. المقتضب، محمد بن يزيد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضية، القاهرة.
٢٦. المنجد في اللغة، لويس معلوف، ط٣٥، بيروت.

٢٧. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د. محمد راتب، دمشق، ط٤،
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
٢٨. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، دمشق
ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٩. الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني، د. سمير عبد الحليم، د. محمد راتب،
دمشق ط٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

الرسائل الجامعية:

١. جهود أبي موسى الجُزلي، رسالة دكتوراه، جامعة بابل، قدمها الدكتور: هاشم
حسين / ٢٠١١م.
٢. دراسة اللهجات العربية القديمة في العصر الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة
الكوفة، قدمها الدكتور علي محسن بادي ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
٣. المشكل في العربية، رسالة دكتوراه، جامعة بابل، قدمها الدكتور أمين عبيد
جيجان، ١٣٤٠هـ / ٢٠٠٩م.

